الفصل الثاني

رياح لم تشتهها السفن

بعد أن عاد الصادق من إنجلترا عام ١٩٥٧م كان ينوي العودة لدراسة الزراعة في كاليفورنيا، وفي هذه الأثناء جرت انتخابات ١٩٥٨م حيث تم استنفاره للعمل في الحملة الانتخابية لحزب الأمة.

قال السيد الصادق إن المناخ السياسي السائد حينها لم يكن يناسبه، ولم يك ينوي الانخراط فيه، وإنه حينما استنفر للعمل في الانتخابات اعتبرها «مأمورية»، أي مهمة محدودة، فاشترك فيها.

أجريت هذه الانتخابات في ظل حكومة ائتلافية بين الأمة وحزب الشعب الديمقراطي بقيادة السيد عبد الله خليل، وذلك لانتخاب برلمان من قسمين: مجلس شيوخ ومجلس نواب، وكان عمر الأهلية للناخبين في مجلس الشيوخ ٢٥ عاماً وفي مجلس النواب ٢١ عاماً، وفيها ألغيت دوائر الخريجين وتم الأخذ بنظام الصوت الواحد للفرد الواحد. كما تم فيها إلغاء فكرة التفرقة في تقسيم الدوائر بين الريف والحضر. فقد كانت الانتخابات التي سبقتها تعطي الحضر ثقلاً أكبر بكثير من الريف.

وطبقاً لذلك حصلت زيادات كبيرة للدوائر الريفية خاصة في دارفور والشمالية وفي الجنوب. وقام حزب الأمة بإرسال وفود من الكوادر والشباب للأقاليم للمشاركة في أعمال الانتخابات التي بدأت بالتسجيل في نوفمبر ١٩٥٧، ثم الحملة الانتخابية التي استمرت حتى الاقتراع الذي جرى في آخر فبراير ١٩٥٨م.

«مأمورية» الانتخابات

منذ أواخر ١٩٥٧م أرسل حزب الأمة وفود الحملة الانتخابية وقلنا إن السيد الصادق كلفه والده السيد الصديق الذي كان رئيساً لحزب الأمة بـ«مأمورية» *(أن أذهبَ مرافقاً لبعض وفود حزب الأمة. فأرسلتُ مرافقاً للسيد أمين التوم، وهو كان من زعماء حزب الأمة، في منطقة دنقلا) بكلمات السيد الصادق، (فلمّا ذهبتُ معهم أعجبوا بأدائي*

لأني أتيت لهم بتفصيل كل قرية وناسها وماذا يريدون، وأعطيت قراءة للمستقبل ماذا ستكون نتائج الانتخابات؟ طلبوا مني أن أُرافق السيد أمين التوم ثاني مرة لمنطقة جنوب كردفان، وذهبتُ معه. هو أعجب بأدائي وطلب أن أبقى في منطقة الجبال إلى أن تنتهي الانتخابات، فبقيتُ هناك ثلاثة أشهر كانت مدرسة بالنسبة لي. لأن الجبال مكوَّنة من تركيبة النوبة والعرب، وفيها كل التنوع السوداني الذي يمكن أن تراه. فهذا فتح لي مجالاً لدراسة هذا الموضوع، مسألة الهوية في السودان، وأن أية محاولة لفرض هوية مركزية، دون مراعاة هذا التنوُّع يؤدي إلى التفكيك. وأن مراعاتها يمكن أن تؤدي إلى التسبيك. على كل حال جبال النوبة كانت بالنسبة لي مفيدة من هذه الناحية، وبعد أن انتهت الانتخابات كانت هناك ١١ دائرة كسبنا منها ٨. فكان في هذا نوع من التزكية لي في العمل. لكني عندما عدتُ رفعت يدي من كل شيء له دخل بالعمل الحزبي أو السياسي، ودخلت فوراً إلى وزارة المالية على أساس أني سأواصل مشروع التعليم وابتعث لدراسة الزراعة)[1].

كانت نتيجة الانتخابات لمجلس النواب لمصلحة حزب الأمة، خاصة مع انقسام الختمية عن الحزب الوطني الاتحادي وتكوينهم لحزب الشعب الديمقراطي في عام ١٩٥٦م. سبب آخر هو إنهاء التفرقة بين الريف والحضر، فالمناطق المميز ضدها بتلك التفرقة في كردفان ودارفور ومجمل المناطق المهمشة في غالبها مناطق الأنصار وحزب الأمة.

نال حزب الأمة (٦٣ مقعدا)، ونال الوطني الاتحادي (٤٤ مقعداً) والشعب الديمقراطي (٢٦ مقعداً)، بينما نال حزب الأحرار الجنوبي (٤٠ مقعداً). وكانت الحكومة التي أجرت الانتخابات ائتلافية بين حزب الأمة والشعب الديمقراطي برئاسة السيد عبد الله خليل كما ذكرنا.

والجدير بالذكر أن جميع مرشحي الحكومة في دوائر العاصمة المثلثة قد سقطوا في الانتخابات ولم يفز أي منهم ومن بينهم وزير الداخلية، السيد علي عبد الرحمن، الذي رشح نفسه في دائرة الخرطوم بحري حيث يقيم فسقط في عقر داره، مما يدل على نزاهة

(١) (من حلقة شاهد على العصر مع الإمام الصادق المهدي، الحلقة الثالثة (بتصرف)، بثت في قناة الجزيرة في ٩ أغسطس ٢٠١٥م

تلك الانتخابات، كذلك كانت نتيجة الانتخابات مفاجئة للمعارضة ومع أن المعارضة كانت تقدر نجاحها بأكثر من مائة مقعد فإنها لم تفز بخمسين مقعداً، ومع ذلك لم تبد أي اعتراض أو شك[1].

شارك الصادق إذن في أشهر الانتخابات في زيارات الوفود لمنطقتي الشمالية (دنقلا) ثم جبال النوبة حيث بقي في الجبال لثلاثة أشهر. وهاله ما وجده من فقر مدقع وعيشة شظف في تلك المناطق، وكان يراسل السيدة سارا الفاضل زميلته في رابطة شباب الأسرة، يحكي لها عن بؤس الحال الذي وجد فيه الناس، ويطالبهم في الرابطة بإقامة حفلات خيرية لجمع الملابس والمال وإرسالها لمناطق البؤس التي رآها.

وتأكد للصادق الذي كان ينادي بالاشتراكية من قبلها وينشط في النادي الاشتراكي بجامعة أوكسفرد أن بلاده، خاصة بعد الطواف الذي قام به في عدد من الأقاليم، تحتاج بشكل ملح لتقسيم عادل للثروة بين الناس، وهي الأفكار التي ضمنها مقدمته لكتاب العبادات للإمام المهدي الصادر في عام ١٩٥٩م. وجاء فيها التالي: (*الحضارة الإسلامية تعتبر العيشة في مجتمع أغلبه جائع وقلة منه متخمة بالشبع عيشة خاطئة من الناحية الدينية، ضارة من الناحية الاجتماعية. لذلك وضعت تشريعات عديدة هدفها العدالة في تقسيم الحظوة المادية. تلك التشريعات هي أساس الاشتراكية الإسلامية التي لا تخلو صفحة من صفحات القرآن ولا حقبة من سيرة الرسول من الإشارة إليها*).

في وزارة المالية

بعد نهاية الانتخابات التي جرى الاقتراع لها في أواخر فبراير، تقدم السيد الصادق للوظيفة بشهادته في الاقتصاد والفلسفة فتم توظيفه في وزراة المالية كمساعد مفتش بالدرجة (كيو) في وزارة المالية قسم الإنشاء والتعمير.

توظيفه بالمالية نفسه لم يكن أمراً معتاداً لأبناء الأسر الكبيرة، فقد كان الاعتقاد أن الموظفين (الأفندية) درجة أقل مما تتيحها تلك الأسر لأبنائها من جاه وحظوة. وقد جعل العميد يوسف بدري رحمه الله الهرم الاجتماعي السوداني مكوناً من أربع درجات أعلاها

(١) حاج موسى، السابق- ص ٣٦٢- ٣٦٣ إذ روى قصة سقوط وزير الداخلية بدون تسميته، وكان وزير الداخلية هو الشيخ علي عبد الرحمن انظر عبد الباسط سبدرات، حكومات السودان ص ٢١٨

السادة الثلاثة، يتلوهم نظار القبائل ورؤساء العشائر، ثم الأفندية، ثم سواد الناس[1].

وكان رئيس قسم الإنشاء والتعمير هو السيد عبد الهادي حمدتو، وهو رئيس السيد الصادق المباشر، كما كان وكيل الوزارة هو السيد حمزة ميرغني.

وسنجد أن تجربة الصادق في العمل بوزارة المالية قد أمدته بمعرفة بها وسوف نرى كيف استعان لاحقاً ضمن مقاعد حزبه بالسيد حمزة ميرغني وزيراً للمالية، فكان ذلك مثار الدهشة للجميع لأن السيد ميرغني لا علاقة له بحزب الأمة.

مرت أيام الحبيب الصادق عادية فهو يواصل عمله الوظيفي، ويشارك في عمل رابطة الأسرة، ويواصل علاقاته الاجتماعية فقد كان يصادق أصدقاء هم في عمر أبيه كما قال، كان يحرص على زيارة الشيخ الطيب السراج، والسيد عبد الرحمن عابدون، والأمير عبد الله نقد الله، والسيد عبد الرحمن النور..إلخ.

ومن الطرائف التي تروى في تلك الفترة، إنه واستناداً لموقف المهدية المتشدد من المعازف كان الصادق يستنكرها، وفي زفاف السيد أحمد المهدي كان هناك حفل غنائي، فانتفض السيد الصادق قائماً للمغادرة، فقالت له أخته السيدة صافية وفي لسانها لثغة: الصادق أخوي ما تقعد تفلّق (تعني: تفرّق، أي تفرّق همك)، فقال لها مازحاً: لو قعدت فإنني فعلا سأفلّق! ومضى في سبيله.

وسوف نرى أن السيد الصادق غيّر موقفه هذا من المعازف أو الموسيقى والغناء لاحقاً، واعتبر أن الفنون مثلها مثل سائر أعمال البشر تحل وتحرم بحسب ما تبشّر به وليس التحريم من جنسها[2].

عصفوران.. بحجر!

ذكرنا أن السيد الصادق فكّر في الزواج بطالبة إنجليزية ولكنه صرف النظر للفجوة الحضارية التي أدرك أن الزواج لن يسدها. وفكر بعدها أن يتزوج من خارج الأسرة فقد كانت الزيجات في الأسرة تلك الأيام مخططة، يرسمها كبار الأسرة وتعقد العقودات في

(١) مذكرات العميد يوسف بدري قدر جيل ص ٣٧

(٢) انظر مثلا الصادق المهدي: رؤى في الديمقراطية والعروبة والإسلام ١٩٩٩، أو نحو ثورة ثقافية، ٢٠٠٦م.

الرجبية، أي مهرجان الزواج يوم ٢٧ رجب من كل عام.

وكانت فكرة الإمام عبد الرحمن من مهرجان الزواج الذي يشارك فيه كل المجتمع: الأنصاري وغيره، هو تقليل نفقات الزواج، حتى أن واحدة جزلى من ذلك التسهيل الذي سمح لها بأن تجد عريساً قالت:

ود المهـــــدي ينصـــــلح الضـــوقنا بوخـــة الطلـــح![1]

وكان المهرجان يقام ببيت الأمة أي مجمع قبة الإمام المهدي، ويحضره الشعراء وكان الشاعر المجيد المرحوم محمد المهدي المجذوب فيمن يحضرونه، وقد ألقى في المهرجان عام ١٩٤١ قصيدة بث فيها همه وكان دائب الدعوة للأنصار للجهاد، ثم دلف إلى الحديث عن غلاء المهور، قال:

جيشـان صـدري أم هـدير سـحابة برقـت تحـدّر غيثهـا مـن منبـر
حـق علـي ومـا أرد قضـاءه ألقيـت فيـه عمامتـي عـن مخبـري
أنسـى العواقـب إذ أشـد مصـافحا هـولا أشـد يديـه غيـر معـذر
فـيض ولـيس مـن الكـلام وصـيحة علـم شـدا بشـبابي المتنمـر
لقيـت بـه كـرري الحتـوف سـخية بـدم علـى إيمانهـا متحـدر
وتسـيل شـيكان سـنابك خيلهـا شـفق تـدفق بـالخريف الأحمـر
فمتـى أرى شـعبي يهـب مضـرجاً علـم البطولـة بالشـباب المـؤثر
المهرجـان بشاشـة لاقيتهـا بسـآمة عانيتهـا وتحسّـر
أرأيـت مـن جعلـوا النسـاء بضـاعة مـلء الخـدور لمـن يبيـع ويشـتري[2]

(١) الطلح والشاف هما أنواع الخشب التي تستعملها النساء في نوع من الزينة يسمى (الدخان) حيث تجلس الواحدة مغطاة بقطعة كبيرة من القماش تسمى (الشملة) على حفرة يوقد فيها الطلح أو الشاف أو خليط منهما بجمر فتصدر دخانا كثيفا وتظل الواحدة تجلس عليها لساعات حتى تكتسب لونا ورائحة مستحبة. ويتكرر ذلك الجلوس على فترات، والجلسة الواحدة تسمى (بوخة).

(٢) القصيدة في ٢٧ رجب الموافق ٨/ ٨/ ١٩٤١ وهي منشورة في ديوانه (منابر)

وقال الشاعر حسن ابن الشاعر عمر الأزهري وحفيد العالم الأمين الضرير، بمناسبة مهرجان الزواج يخاطب الإمام عبد الرحمن:

أرى نجمين في قطب رفيع ... ينيران الوجود ويوقدان
أبوك وأنت ما لكما شبيه ... من الأضراب إلا الفرقدان
جزاك عن الشريعة كل جازٍ ... بما أحييت من عقد القران
ترى الأفراح تشمل كل دار ... بهذا القطر من قاص وداني
وأصبح ثالث العيدين يأتي ... لدى رجب على مر الزمان

وبالفعل صارت «الرجبية» عيداً ثالثاً لدى رجب على مر الزمان.

وكانت فكرة الإمام عبد الرحمن في الزيجات المخططة داخل الأسرة هي تمتين العلاقات داخل أسرة المهدي وخلفائه، خاصة وهم حتى في البيت الواحد أمهاتهم شتى، وكثيراً ما يسكنون بيوتاً متفرقة. وقد كانت المهدية رابطاً بينهم بالروح أوثقه الجهاد الماضي والمناسبات التي تنظم كل المجتمع الأنصاري وتجعله جسداً واحداً، ذلك المجتمع الذي رثاه المادح الشهير أحمد ولد سعد في بكائيته القاتلة «السادة الخيرة.. فاتوني وبقيت في حيرة»:

يا حليل الديرة ... العمانا خيرا
جاتنا المانديرة ... ومسخت الجيرة
دوب لي البندورم ... دوب لي البنزورم
دوب لي البنشورم ... وسماع منشورم
دوب لي راتبهم ... وترتيل حزبهم
دوب لي صاحبهم ... الما بكذبهم
دوب لي البنريدم ... دوب لي مسيدم
دوب لي يوم عيدم ... وسلام فوق ايدم
دوب لي مرقاتم ... دوب لي عرضاتم

دوب لـــــــي رايـــــــاتم وصـــــفوف صـــــلواتم

وكان ود سعد فيما روى المرحوم قرشي محمد حسن[1] مصابا برمد يُحبس صاحبه في الظلام ولا يغادر بيته، وحينما خرج كانت «الكسرة»[2] قد حدثت وخلت أم درمان من ملامح المهدية وبحسب ما قال (جاتنا الماندیرة.. ومسّخت الجيرة) وفسّر بعضهم الماندیرة ببيوت المنكر!

كانت المهدية قد فتحت الباب لاختلاط قبائل السودان فيما بينها بشكل مقصود، وتمنى الإمام المهدي أن يعطيه الله مائة بنت (يفدي بهن القبائل) كما قال أي بالصهارات يجمع بهن قبائل السودان في بيته، فلم يكن زواج الأقارب حالة شائعة أيام المهدية. ونتيجة هذه الخطة فإن بيت الإمام المهدي صار (كبانية) تجتمع فيها قبائل السودان طراً.

ولكن، يبدو أن العودة للصهارات الداخلية كانت خطة الإمام عبد الرحمن لمعارضة مخطط الاحتلال بتمزيق أسر المهدي وخلفائه شذر مذر، وحتّهم من ورقة المهدي وهو مخطط نجح كثيراً، فمنهم من تنصّل من اسم جده أو أبوه أو كنيته في المهدية. وهي كذلك فيما يبدو لنا جزء من خطته لمهادنة تعاليم المجتمع السوداني التي كانت المهدية قد جعلتها نهباً لأعاصير توجيهاتها الثورية.

لكن الصادق عندما عاد من إنجلترا لم يكن محبذاً لفكرة الزواج داخل الأسرة كما ذكرنا، وشرع فعلا في خطبة فتاة متعلمة حسنة المنبت هي السيدة سعاد التجاني الماحي، وقد كانت صديقة أخته السيدة وصال وكانت ووالدته تحمدانها فرشحتاها له كزوجة، وذهب بالفعل لخطبتها بدون اصطحاب والده لأنه كان يعلم حرصه وكل الأسرة على إجراء الزيجات بالطريقة المخططة المعروفة، فأخذ في صحبته عمه وابن خالته السيد أحمد المهدي وهو في نفس عمره. وفي ذلك الزمان وربما حتى الآن في كثير من الأسر فإن الزواج هو شأن الأسرة الممتدة، والخطبة تتم عبر زيارة النساء في البداية للتعارف وتمهيد الطريق، ثم تتلو الخطوة الرسمية حيث يأتي كبار رجالات الأسرة، ويغيب

(١) قرشي محمد حسن : قصائد من شعراء المهدية، الناشر المجلس القومي لرعاية الآداب والفنون، ١٩٧٤م.

(٢) يسمي الأنصار واقعة كرري في ٢ سبتمبر ١٨٩٨م بالكسرة.

العريس نفسه عن المشهد بل إنه يغيب والعروس حتى لدى عقد القران، ومؤخرا صار العرسان الذكور يحضرون، ولكن لا زالت العروس عن أهم مناسبات تقرير مصيرها غائبة.

الشاهد، إن دكتور التجاني، وهو نعم النسيب المختار، إذ كان من أميز رموز بلادنا سواء في طبه أو ثقافته العالية وعمق معرفته وموسوعيتها أو وطنيته المخلصة، رحّب بالسيد الصادق ولكن قال له لا بد من أن يأتي للخطبة السيد الصديق، وهنا انتهت الخطبة في مهدها.

بعد ذلك توطدت علاقته بالسيدة سارا الفاضل ابنة عمته فقد عملوا بنشاط في رابطة شباب أسرة الإمام المهدي، ونمت بينهما مودة، وبتعبيره وهو يرثيها بعد مرور حوالي خمسين عاماً على تلك الأيام، قال إنه نشأت بينه وبينها علاقة حب قوية وخاض أهوالاً في سبيل الارتباط بها.

ثم سافرت سارا في النصف الثاني من سنة ١٩٥٨م لأمريكا لتتلقى دراستها، فهي وإن كانت تكبره بعامين، إلا أنها كانت انقطعت عن الدراسة لأسباب صحية إذ كانت تعاني من الشقيقة (الصداع النصفي) مما اضطرها لترك الدراسة فترة والذهاب لمصر للاستشفاء، وحينما عاودت الدراسة لم يرق لها أن تدخل الجامعة مع من هن أصغر منها سناً من بنات الأسرة: ابنة خالها وصال، وأختها زهراء وخالتها إنعام، وقالت لجدها الإمام عبد الرحمن إنها تريد أن تذهب للدراسة بالخارج، وبالفعل هيأ لها للدراسة في أمريكا بالكلية الغربية للنساء بأكسفورد، أوهايو. وروت أن الإمام عبد الرحمن أخفى حادثة سفرها من الجميع حتى أبوها أخبره في الأيام الأخيرة خوفاً من أن يقوم الرافضون المتوقعون بعرقلة السفر، ورتب أن يكون السفر يوم الكرامة التي نظمها له السيد عبد الله المهدي في بيته بشارع البلدية بالخرطوم لعودته من السفر. وخطب الإمام عبد الرحمن في الجمع الأسري قائلاً إن عجلة التقدم في العالم دائرة ومن لا يماشيها تدوسه، وإن للمرأة دوراً كبيراً يستوجب تعليمها، وسندخل هذه التجربة بإرسال بنتي سارا للتعليم في أمريكا فإما أن تنجح وتفتح باباً كبيراً للمرأة السودانية، أو تفشل وتقفله، وقد قيل فليتغرب خيارنا ليستر حاله وحالنا، وآمل أن يكون اختياري صحيحاً. ثم طلب من السيد الصادق أن يرافقها للمطار، قالت: نادى الإمام عبد الرحمن الصادق وقال له (أوصل أختك المطار لأن موعد طيارتها الآن). وقالت: لما أوصلني الصادق للمطار

أعطاني مسبحة ومصحف، وذهبت.

وروى لنا السيد الصادق في حلقات السيرة التي كان يلقيها علينا في الثمانينات أن الإمام عبد الرحمن ناداه، ولعل ذلك أوائل عام ١٩٥٩م، وقال له إن صهره الدكتور مأمون حسين شريف قد خدمه خدمات جليلة ورأى أن يكافئه بتزويجه من بنته الكبرى، والدتي السيدة حفية.

جدي مأمون متزوج من أمي شامة (نور الشام) ابنة الإمام عبد الرحمن وهو في نفس الوقت ابن الصحفي السوداني الأول السيد حسين بن الخليفة شريف، وحفيد لبنتي المهدي السيدتين أم كلثوم وزينب، وكان من أوائل الأطباء في الأسرة هو والسيدان الفاضل البشرى المهدي وبشير محمد صالح عبد الكريم، وكان جدي مأمون يتابع صحة الإمام عبد الرحمن باهتمام، وحينما اقترح الإمام عبد الرحمن على حفيده السيد الصادق حينها أن يتزوج من ابنته، قال له إنه لم يكن يريد الزواج في الأسرة أصلاً ولكن وضمن عمله ونشاطه في الرابطة صارت له علاقة بسارا ويريد أن يتزوجها، فاقترح عليه الإمام عبد الرحمن أن يتزوجهما سوياً، حفية وسارا، فوافق.

حينما روى لنا السيد الصادق تلك الرواية في ثمانينات القرن الماضي استغربت على هذه السهولة التي أزمع فيها أن يتخذ زوجتين في جلسة واحدة، أو يصطاد عصفورين بحجر! ولكن أظن أن ذهنية ذلك الجيل حول الزواج لم تكن بالتعقيد الذي عايشه جيلنا خاصة مع السينما والروايات العاطفية. وكان التعدد حالة عادية في الأسرة خاصة في الجيل الذي سبقه، فوالده الصديق كان مخطوباً لوالدته رحمة منذ الصغر، وبرغم ذلك تزوج ابنة عمه صفية، ثم رحمة وبعدها تزوج ملكة، ولم يكن في المسألة غضاضة. ولكن هذا لا يمنع من أن السيد الصادق لاحقاً قد اتخذ رأياً مغايراً حول التعدد، وضرورة التزامه بضوابط معينة لئلا يهزم المودة والسكينة وهما من مقاصد الزواج في الإسلام.

وبالفعل تم زواج السيد الصادق من أمي السيدة حفية في مارس ١٩٦٠م أي بعد عام من وفاة الإمام عبد الرحمن. وكان الإمام عبد الرحمن في حياته قد أهدى لحفيده بيتاً مجاوراً لبيت أبيه بالملازمين والذي نسميه «بيت البحر» لقربه من النيل، فلما تزوج من أمي حفية سكنا فيه وكنا في صغرنا نسميه «البيت التاني». ذلك أننا كنا نسكن في بيت الإمام الصديق ذاته مع أمي رحمة وأعمامي فيصل وصلاح، وأمي وصال وزوجها

وأبناؤهما، وذلك قبل أن يتفرقوا لبيوت أخرى.

حينما عادت السيدة سارا من أمريكا بعد إكمال دراستها في عام ١٩٦٢م، تقدم السيد الصادق لخطبتها، وكان الإمام عبد الرحمن المهدي قد انتقل إلى رحمة مولاه وكذلك أبوه الإمام الصديق. وحدثت تعقيدات كثيرة جعلته يلاقي الأهوال التي ذكرها في سبيل الارتباط بها، وقد كان من ضمنها تخوف الجميع من أثر هذا الزواج على الأسرة فسارا وحفية بنتا خالات وأميهما تربطهما علاقة وثيقة فهما البنتان الوحيدتان لأمهما السيدة خديجة، واعتبرا أن هذا الزواج سوف يشق الأسرة، وفي النهاية حضرت السيدة حفية نفسها للسيدة سارا لتخطبها لزوجها ولتأكيد أن هذه العلاقة لن تطيح بما بينهما من مودة، في حين غابت السيدة عائشة، والدة سارا يوم الزواج معاضدة لأختها نور الشام!

وتم زفاف السيد الصادق للسيدة سارا في ٢٨ فبراير ١٩٦٣م.

كثير من الناس يسألون كيف استطعتم تجاوز علاقة الضرات المعهودة؟ وكيف ارتباطكم المشهود هذا بأبيكم وببعضكم بشكل يصعب على أي معايش لكم معرفة من هي أم كل واحد وواحدة، وأعتقد كان للثلاثة دور في ذلك، فقد حرص الوالد على العدل بين زوجتيه بشكل أسطوري، وأذكر أنه في الأيام التي كان فيها بالبلاد بعد المصالحة الوطنية في السبعينات كنت أكون مع أمي رحمة رحمها الله، وكان يمر عليها وهو يتحول من بيت لآخر فكان لا يتأخر دقيقة عن موعده يحضر إليها الساعة الثانية بعد الظهر ويؤانسها قليلاً من الوقت ثم يذهب للبيت الآخر، وكثيراً ما يقول تندراً إن الله شاء أن يكون العدل حتى في عدد الأبناء ونوعهم فلي من كل زوجة ثلاث بنات وولدين! وبالنسبة لأمينا فقد أظهرا لنا ونحن صغار شكلا من التآخي بينهما ولم تبد لنا المشاكل المعهودة إلا بعد أن كبرنا وكانت علاقاتنا أصلاً متوطدة لا تدخل فيها أم ولا خالة.

ومع أن سكنانا قريبة من بعض بحيث كنا نلتقي في ذات الحوش ولعبنا سوياً في طفولتنا فلا تفرق بيننا إلا الأمسيات، حيث يبيت كل في مضجعه المنفصل، إلا أننا في الإجازات كنا نلحق بوالدنا سوياً وتزول حتى فوارق الليل فننام في ذات الغرف ونندمج سوياً، فلا توجد لنا ذواكر منفصلة. ويبدو أن دور أمي سارا رحمها الله كان محورياً في ذلك، فقد وقع بيدي خطاب من السيد الصادق لها رحمها الله يشرح لها لماذا طلب

حضور أبنائه من كل منهن مع أمهم، ويؤكد إنه لم يسع للتفرقة بين أولاده! ويبدو أنها كتبت إليه غير محبذة لذلك ومطالبة ألا تكون صحبتنا له مربوطة بأمينا بل به.

عودة للمشهد الوطني

قلنا إن السيد الصادق كان قد عمل موظفاً بوزارة المالية. وشارك في الانتخابات ككادر في الحزب. وبعد الانتخابات تكونت حكومة ائتلاف الأمة- الشعب مرة أخرى برئاسة السيد عبد الله خليل، وواجهت العديد من المشاكل تسبب في بعضها عدم الانسجام بين طرفي الائتلاف، وعدم المقدرة على تسيير دفة الحكم في ظل ائتلاف هش وعاجز. وكذلك الأزمة الاقتصادية التي أعقبت حالة من الرفاهية. وساد جو من الترقب، وتتابعت التقارير السرية عن تحركات مشبوهة للملحق العسكري في السفارة المصرية تحضيراً لانقلاب ناصري، وفي ظل هذا التوتر وانعدام الثقة والاختلاف إزاء معظم السياسات الداخلية والخارجية ظهر التململ الشعبي بادياً في المظاهرات وفي التذمر من الجميع بما في ذلك الحزبين الحاكمين.

في تلك الظروف قلب قادة حزب الأمة جميع الحلول بما في ذلك التقائهم بقادة القوات المسلحة للتفاكر، يقول الدكتور إبراهيم حاج موسى ناقلاً عن أقوال السيد إبراهيم عبود أمام لجنة التحقيق القضائية التي كونت بعد ثورة أكتوبر للتحقيق حول حقائق انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م: (دعا السيد عبد الله خليل سكرتير حزب الأمة ورئيس الوزراء ووزير الدفاع في نفس الوقت، دعا قائد الجيش ونائبه وقائد حامية الخرطوم وقائد سلاح المهندسين، أي جميع كبار ضباط الجيش الموجودين بالعاصمة إلى اجتماع في منزل السيد الصديق المهدي رئيس حزب الأمة، وكان ذلك في أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٨م وفي هذا الاجتماع الذي حضره إلى جانب السيد الصديق ورئيس الوزراء حضر السيد زين العابدين صالح أحد سماسرة السياسة في السودان، ودار الحديث حول الموقف السياسي والوضع الاقتصادي الذي وصفه السيد الصديق المهدي بأنه غير مستقر واقترح أن يكون وزير الدفاع من الجيش، لأن ذلك من شأنه أن يساعد على الاستقرار، وفي ذلك يقول إبراهيم عبود قائد الانقلاب: كنت سنة ١٩٥٨ القائد العام للجيش ومهمة الجيش معروفة وهي الحفاظ على الأمن وكنت أتلقى تعليماتي من رئيس الوزراء ووزير الدفاع عبد الله خليل. قبل الانقلاب بنحو شهرين جاءني عبد الله خليل في المكتب وقال «حيكون في جلسة في منزل السيد الصديق بأم

درمان»، ودعاني لحضورها فأخذت أحمد عبد الوهاب وكان موجود السيد الصديق وعبد الله خليل وزين العابدين صالح، وافتكر كان معنا عوض عبد الرحمن وحسن بشير كان معي حتماً، وتطرق الكلام إلى الموقف السياسي وشرحه السيد الصديق وقال إن البلد غير مستقرة وإذا عُمل وزير الدفاع من الجيش فإن هذا يساعد على الاستقرار، وانفضت الجلسة على لا شيء ولم يحدث اتفاق)[1].

ويبدو أن الاجتماعات قلبت حتى فكرة الانقلاب العسكري، وهذا ما ظهر في حديث الإمام الصديق لاحقاً لقيادة انقلاب نوفمبر أثناء المفاوضات التي جرت أوائل العام ١٩٦١م حيث قال لهم: (ولتعلما مقدار تأييدنا للتغيير نتيجة لما وصلت إليه الحالة من سوء، فلقد اجتمع بمنزلي بأم درمان وأكثر من مرة السادة إبراهيم عبود، وأحمد عبد الوهاب، وحسن بشير، وعوض عبد الرحمن لبحث ما آلت إليه الحالة ولنفكر في الانقلاب وكيف يتم، وأخيراً وبعد بحث استبعدنا فكرة الانقلاب لئلا نزج بالجيش في السياسة والحكم)[2].

نحن نعلم أن السيد الصديق كان من أبرز المعارضين للانقلاب حينما تم، لكن واضح أن الفكرة نوقشت في الاجتماعات، وقد كانت بالأصل فكرة السيد عبد الله خليل، وقد سعى لتسويقها لقادة حزبه أولاً بتنظيم تلك الاجتماعات، وسنرى أنه عرضها كذلك لمجلس إدارة الحزب الذي رفض الفكرة بالأغلبية الساحقة، وفي النهاية حينما آيس من مساندة مؤسسة حزبه، تصرف البك منفرداً مكتفياً بإقناع الراعي الإمام عبد الرحمن بتأييد الانقلاب.

داخل حزب الأمة تبنى رئيس الحزب حينها، الصديق المهدي رأيا مفاده أن الحل هو قيام ائتلاف جديد مع الحزب الوطني الاتحادي بقيادة الأزهري، وقد عارض ذلك الاتجاه السكرتير العام عبد الله خليل. وتبنى رئيس الحزب لاحقاً كما سوف نرى فكرة حكومة قومية.

طبعاً البك كان شخصاً معلوماً بصدقه واعتداده برأيه، وأظنه لو كان استقبل من أمره ما استدبر، واطلع على حديث الشيخ علي عبد الرحمن أمام لجنة التحقيق القضائية حول

(١) حاج موسى، سابق، ص ٢٠١

(٢) جهاد في سبيل الديمقراطية، ص ٣٠

أسباب ائتلافهم مع حزب الأمة، لكان غير رأيه واقتنع بأنه في حماسه للائتلاف مع الشعب بل وتنسيقه مع السيد علي، كان يستجير من الرمضاء بالنار.. قال الشيخ علي: (سبب ائتلاف حزب الشعب مع حزب الأمة أنه بعد الانتخابات العامة لم يكن أي حزب قادر على تأليف حكومة بمفرده، وكانت علاقاتنا مع الوطني الاتحادي حادة بعد الانشقاق، ولا تسمح بتكوين حكومة منا ومنه، ولذا كان طبيعياً أن يكون حزب الأمة طرفاً في الحكومة وقد حدث تلاقي بين الختمية والأنصار قبل الانتخابات بين السيدين -الميرغني والمهدي- ولهذا كانت علاقتنا مع حزب الأمة أحسن بسبب التلاقي، وبعد الانتخابات، ولكن كان شعورنا نحن سياسيو حزب الشعب أن حزب الأمة هو عدونا الطبيعي، ولا يمكن الالتقاء معه قط، وكنا نرى أن الالتقاء معه بعد الانتخابات سيحول دون تحقيق أغراضه السياسية أكثر مما لو تركناه يلتقي مع الوطني الاتحادي)[1].

ومع تفاقم الخلاف عرض السيد عبد الله خليل على أجهزة الحزب القيادية اقتراح تسليم السلطة لقيادة القوات المسلحة لتنقذ البلاد مما هي فيه من قلاقل وتسعى لوضع الدستور الدائم.

مجلس إدارة الحزب مكون من الرئيس السيد الصديق المهدي، والسكرتير العام السيد عبد الله خليل إضافة للسادة إبراهيم أحمد، عبد الرحمن علي طه، عبد الكريم محمد، عبد الله الفاضل المهدي، محمد الخليفة شريف، محمد علي شوقي، عبد الرحمن عابدون، يعقوب عثمان بابكر، ميرغني عثمان صالح، بدوي محمد علي، محمد حاج الأمين، وعلي بدري. رفض هذا المقترح بالأغلبية الساحقة حيث لم يقبله إضافة للسيد خليل سوى عضو واحد آخر. أي رفضه ١٣ من أصل ١٥ عضواً من أعضاء مجلس الإدارة.. وظل الاستقطاب بين الطرفين حول الخروج من الأزمة السياسية مستمراً.

ويبدو أنه في تلك الأجواء كذلك كان هناك اتجاه لدى البعض بإقالة السيد عبد الله خليل، أشارت لذلك بعض المصادر، قال السيد غراهام توماس وهو على علاقة ببعض قادة حزب الأمة: «نشطت في صفوف حزب الأمة حركة تدعو إلى جعل عبد الرحمن علي طه رئيساً للوزراء بدلاً من عبد الله خليل. وكان السيد صديق يحبذ تلك الحركة لأنه كان على نفور مع عبد الله خليل، غير أن السيد عبد الرحمن الكبير كان شديد الإخلاص لعبد

(١) حاج موسى، سابق ص ١٨٨

الله خليل هذا، وقال: لقد لازمني الرجل ووقف معي في الظروف الحالكة»[1].

ويشير يحي عبد القادر إلى أن السيد محمد الخليفة شريف كان وراء ذلكم الموقف. والذي يعرف قربى السيد محمد الخليفة شريف من الإمام عبد الرحمن ودأبه في الدفع باتجاه ما يراه، ربما يستطيع أن يتفهم مدى الطرق برأس البك.. قال الأستاذ يحي محمد عبد القادر عن البك: (كان سكرتيراً لحزب الأمة ورئيساً لوزراء الحزب ولكن مع ذلك كان يمتلك من الآراء والاتجاهات ما يجعله أحياناً ضد حزب الأمة وضد آل المهدي. وقد بدا ذلك واضحاً أثناء مفاوضات وفد المهدي مع حكومة مصر، إذ كان يتحدى من يقول بقبول التاج الرمزي للسودان، وأن يكون في نطاق الوحدة مع مصر، وكاد في ساعة غضب أن ينضم للحزب الجمهوري الاشتراكي. وحين أخذ السيد محمد الخليفة شريف من أقطاب حزب الأمة وآخرون يجرون اتصالات وهو رئيس للحكومة للإطاحة به في منتصف عام ١٩٥٨م قال للصديق المهدي رئيس حزب الأمة لماذا يتعب السيد محمد نفسه هذا التعب المرهق في محاولة قد لا يكفل لها النجاح في حين أن استقالتي حاضرة، وهي دائما بين يديك إذا أردتها).. وعقب يحي بقوله: (فطيب السيد الصديق خاطره وقال له إن السيد محمد الخليفة لا يمثل حزب الأمة رغم أنه من أقطابه ولا يمثل آل المهدي رغم أنه من صميمهم.. وإننا واثقون منك وليس ثمة نية للتغيير). قال يحي: (غير أن عبد الله خليل لم يكن على يقين من هذه الثقة.. ولعلها هي السبب في تكاثف اتصالاته بالسيد علي الميرغني في ذلك الحين، وفي تخطيطه لبعض الأحداث الكبرى)[2].

وربما كانت تحركات السيد محمد ومن معه بعض ما حرك الأمير ألاي، فقد كان مما نشر من أقواله أمام لجنة التحقيق القضائية أن ضمن الأشياء التي جعلته يسلم السلطة علمه بسعي بعض نواب حزب الأمة لإقالته وإبداله بأحد أبناء أسرة المهدي[3].

الدعوة للحكومة القومية

في مرحلة ما، تبنى السيد الصديق الدعوة للحكومة القومية التي نادى بها آخرون،

(١) توماس، موت حلم، ص ٩٣

(٢) يحي محمد عبد القادر، على هامش الأحداث في السودان، ص ٤٠ - ٤١

(٣) ابراهيم الحاج موسى، مرجع سابق

وكان قد سافر في رحلة علاجية إلى سويسرا في أوائل نوفمبر، فخاطب والده الإمام عبد الرحمن في ٥/ ١١/ ١٩٥٨م بخطاب يرجو فيه أن يتصل بنواب حزب الأمة لتوكيد الثقة في الحكومة ويؤجل انعقاد البرلمان، المقرر له يوم ١٨ نوفمبر، ريثما يتم تكوين حكومة قومية بنسب نواب كل حزب في البرلمان.

ويبدو أن الحكومة القومية برئاسة الأزهري كانت مطلباً شعبياً، وفي مذكرات العميد يوسف بدري نجد ذكر لملابسات (الاحتفال القومي بشفاء الإمام) الذي نظمته اللجنة القومية للاحتفال بالشفاء وغنى تلاميذ الأحفاد والتلميذات نشيد الشفاء الشهير[١]. ذلك المهرجان الذي تم في دار الرياضة بأم درمان وغنى فيه أيضا الفنان الكبير إبراهيم الكاشف من كلمات سيد عبد العزيز:

يا شباب البلاد حيوا الإمام يا شباب

حيوا خالد ذكرتو

سودان اليوم هو منشئو

محرر وموحد كلمتو

هو تاجو وعزتو

ويكتب العميد يوسف بدري رحمه الله في ١٠/ ١٠/ ١٩٥٨م: الاحتفال القومي والشعبي الكبير في دار الرياضة بشفاء الإمام عبد الرحمن المهدي، وقد انحنيت تحت وجهه وقلت له: من هنا مكانك السراية وتعلن تكوين حكومة قومية برئاسة إسماعيل الأزهري (فضحك). وبهذه المناسبة كنت أعتقد أنها ستكون حكومة قوية مستقرة وذلك لأن أزهري كسب مكانة في أوساط الخريجين وفي نظر العامة لأنه رفع العلم[٢].

أما خطاب السيد الصديق لأبيه فكان نصه كالتالي: (جنيف ٥/ ١١/ ١٩٥٨م- سيدي الإمام حفظه الله، تحية وسلاماً راجياً أن تكون بصحة وسرور، إنني أتوقع أن تكون دورة البرلمان القادمة مجالاً لمناورات كثيرة ولذا فإنني أقترح التالي:

١- أن يتصل سيدي شخصياً بنواب حزب الأمة لتوكيد الثقة.

(١) مذكرات العميد يوسف بدري، سابق ص ٣١٨

(٢) نفسه ص ٣١٨

٢- أن يؤجل إنعقاد البرلمان ريثما يتم تكوين الحكومة الجديدة.

٣- يحل رئيس الوزراء الحكومة الحالية ويدعو زعماء الأحزاب للإشتراك في تأليف حكومة قومية بنسبة نواب كل حزب في البرلمان.

٤- تتفق الأحزاب علي إجازة الدستور وتحديد ميعاد مستعجل لانعقاد البرلمان لهذا الغرض ولانتخاب رئيس الجمهورية.

أرجو إذا وافقتم علي هذا أن تطلعوا زملائي في حزب الأمة عليه للعمل لتنفيذه، والله الموفق. إمضاء: صديق عبد الرحمن المهدي).

وللغرابة فقد روى كل من السيد أمين التوم والعميد يوسف بدري رحمهما الله أن السيد عبد الله خليل نفسه تجاوز الخلافات داخل حزبه، ورضي بتكوين الحكومة القومية[١].

وبكلمات العميد يوسف بدري فإن الإمام عبد الرحمن تحدث معه بخصوص موضوع الائتلاف وتحادث هو مع إبراهيم المفتي، وأنه أجرى مباحثات مع السيد مبارك زروق من الوطني الاتحادي بتفاهم مع السيد عبد الله خليل الذي تغدى معه في منزله في ١١/ ١١/ ١٩٥٨م وطلب منه أن يستمر في التفاوض مع زروق حول الحكومة القومية، وليرسل له كشفاً بأسماء وزرائهم.

وفي ١٢/ ١١ ذهب مع الشيخ مصطفى الأمين لتأكيد الموقف مع البك فلم يجداه وقيل لهما إنه ذهب للسيد علي الميرغني. وفي ١٥/ ١١ اجتمعوا بأزهري في منزل الشيخ مصطفى الأمين فيما يتعلق بالحكومة القومية[٢].

هناك تقارير أن رئيس الوزراء كان متوجساً من سفر زعماء من الحزبين الاتحادي الديمقراطي والشعب الديمقراطي ولقاءهم في القاهرة، حيث سافر السيد علي عبد الرحمن رئيس حزب الشعب الديمقراطي ووزير التجارة آنذاك إلى القاهرة دون أن يخطر رئيس الوزراء بذلك، ولاقاه فيها السيد إسماعيل الأزهري رئيس الحزب الوطني الاتحادي الذي عرج من زيارته، لتهنئة الشعب العراقي بثورة (يوليو) ١٩٥٨م، على

(١) انظر/ ي أمين التوم ذكريات ومواقف ومذكرات العميد يوسف بدري، مراجع سابقة

(٢) مذكرات العميد يوسف بدري، مرجع سابق ص ٣١٩

القاهرة حيث واصلا اتصالاتهما هناك، وانتشرت إشاعة لقائهما واتفاقهما مع القادة المصريين على إعلان اتحاد مصر والسودان وقد نشر هذا الخبر في صحيفة فرنسية.

كذلك كانت هناك تحركات داخل حزب الأمة نفسه توجس منها السيد عبد الله، فقد سعى بعض قادة الحزب بتوجيه الإمام عبد الرحمن لإبرام اتفاقية مع مصر عبد الناصر في ١٩٥٨م، ما وثقه السيد عبد الفتاح المغربي في مقاله بعنوان (الإمام عبد الرحمن المهدي يسعى لعقد معاهدة عسكرية بين السودان ومصر قبيل الانقلاب) نشر بصحيفة الأيام (٧ أبريل ١٩٦٧م)[١].

قال المغربي الذي كان آنذاك عضواً مستقلاً بمجلس السيادة، إن السيد عبد الرحمن المهدي اتصل به ليخبره أنه سيرسل لداره اثنين من أقطاب حزب الأمة (السيدان عبد الرحمن علي طه وعلي بدري) وعرضا عليه تبني مباحثات سرية مع الرئيس عبد الناصر عبر السفير المصري بالخرطوم للوصول لاتفاقية بين السودان ومصر، وروى إكمال المباحثات حولها. ثم دعا السيد عبد الله خليل رئيس الحكومة حينها لمنزله وعرض عليه الأمر (فكان شديد الصمت كعادته، وطلب إعطاءه نسخة مسودة الاتفاقية)، وبعد ذلك مباشرة حدث الانقلاب.

في الحقيقة هذه الرواية محيرة، لأن إخفاء الإمام عبد الرحمن المهدي للمسألة من رئيس الحكومة وأقرب الناس إليه غير مفهوم، هل ذلك بسبب الخلاف الذي أشار إليه المغربي في مطلع مقاله داخل حزب الأمة؟ هل هو بسبب معرفة حساسية السيد خليل البالغة إزاء مصر وأي اقتراب منها فأخفى عنه المباحثات حتى تنضج وتأتي بعرض لا يرد ولكن المغربي استعجل وأفشى لخليل مما أثار هواجسه؟ وهل هذه الحادثة هي التي حدت بالأخير لينكر تصاعد دور أسرة المهدي داخل الحزب كما جاء في حديثه للجنة التحقيق القضائية لاحقا؟[٢] الله أعلم!

---

(١) أورده دكتور فيصل عبد الرحمن علي طه في ملاحق كتابه القيم حول الحركة السياسية السودانية والصراع المصري البريطاني.

(٢) يورد الدكتور إبراهيم حاج موسى تبريرات السيد عبد الله خليل لتسليم السلطة التي أدلى بها للجنة التحقيق القضائية التي تكونت إثر ثورة أكتوبر ١٩٦٤م ومنها ضجره من ازدياد سطوة الأسرة في شئون الحزب.

هل الخوف من تدخل مصري يذهب بسيادة السودان هو السبب الحقيقي لتوجيه البك لقرون الرياح السودانية نحو انقلاب نوفمبر؟

تساءل العميد يوسف بدري عن واقعة التسليم مع أن مفاوضات الحكومة القومية كانت تجري على قدم وساق وتحت رعاية البك قائلاً: (هل كان عبد الله خليل يكسب في الوقت؟ لأنه في مرة قال لي: دة لعب عيال أنا سأسلمها للجيش).. (والمتتبع لتاريخ عبد الله خليل السياسي يشهد له بالوطنية ورجاحة العقل والشجاعة والتمسك بالمبدأ، فهل كانت لديه معلومات عن (لعب العيال)؟ ومن هؤلاء العيال؟ والمتابع لمجريات الأحداث مثلي، خصوصاً في السعي لتكوين الحكومة القومية يجزم بأن الإمام كان حريصاً على قيامها، حيث طلب وتابع، وهو ذلك الرجل الواضح القوي الأمين)[1].

الحديث عن لعب (العيال) تكرر نقلاً عن عبد الله خليل في تلك الأيام: (إنني زهجت مما يجري في السودان. الشعب كل يوم في مظاهرات، وأصبح في حالة فوضى أخلاقية لا حدود لها. والسياسيون كلهم كفروا بنعمة الحرية وبدأوا يعربدون زي العيال، والبلد كلها بقت في حالة من الفوضى تهددنا جميعاً بالخراب. وإذا سكتنا عنها حنروح في ستين داهية وحياخدها عبد الناصر ونبقى في (حيص بيص) ولذلك فلا بد من عمل شيء يؤدب العالم دي).[2]

من جهة أخرى يذهب أكثر الكتاب الذين يهرعون لإدانة البك وحزب الأمة ووصف مآربهم الشخصية أو الحزبية إلى أن البك كان يخشى من زوال كرسيه بإسقاط حكومته يوم انعقاد البرلمان.

ويبقى موقف الصديق المهدي رئيس الحزب وبقية أعضاء مجلس إدارة الحزب، أكبر معبّر عن أن التسليم لم يكن مرغوباً به داخل قيادة الحزب، كما يبقى سجل الحكومة الانقلابية وحظ البك منها أكبر دليل على أنه حينما سلّم السلطة للعسكر لم يجن لنفسه ولا حزبه إلا العداء المستحكم. ويبقى الحكم النهائي أمام التاريخ وأمام الحكم العدل في نهاية المطاف.

(١) مذكرات العميد، ص ٣١٩، ٣٢٠

(٢) قسم السيد، سابق، ص٢٨٧ ، نقلا عن عبد الرحمن مختار.

رياح لم تشتهها السفن

الشاهد، كل أو بعض هذا وذاك جعل السيد عبد الله خليل يسلم السلطة للفريق عبود في ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م. هذا الحدث هو الرياح التي لم تشتهها سفن الصادق، ولا سفن السودان الوطنية كلها. كان ذلك فاتحة النظم العسكرية التي أذاقت السودان ويلاً طويلاً، إذ تعاقبت تأخذ بخناق النظم الديمقراطية وتخنق الوطن.

في الصباح الباكر من ١٧ نوفمبر أذاع الفريق إبراهيم عبود القائد العام للقوات المسلحة بيانه الأول متحدثاً عن الفوضى التي وصلت إليها البلاد والأزمات السياسية بين الأحزاب، التي لا هم لقادتها إلا الكسب الشخصي، بحسبه، ومعلناً الأوامر التالية:

١- حل جميع الأحزاب السياسية.

٢- منع التجمعات والمواكب والمظاهرات في كل مديريات السودان.

٣- وقف الصحف حتى صدور أمر آخر من وزير الداخلية.

ثم صدرت في نفس اليوم الأوامر الدستورية التالية:

١- قيام مجلس أعلى للقوات المسلحة.

٢- إعلان حالة الطوارىء في جميع أنحاء السودان بموجب المادة الثانية من قانون دفاع السودان.

٣- وقف العمل بالدستور المؤقت وحل البرلمان ابتداء من ١٧/ ١١/ ١٩٥٨م.[١]

حسب الأمر الدستوري رقم (٢) تكون المجلس الأعلى للقوات المسلحة من ١٣ شخصاً هم:

الفريق إبراهيم عبود القائد العام، اللواء أحمد عبد الوهاب نائب القائد العام، اللواء محمد طلعت فريد، الأميرالاي أحمد عبدالله حامد، الأميرالاي أحمد رضا فريد، الأميرالاي حسن بشير نصر، الأميرالاي أحمد مجذوب البحاري، الأميرالاي محمد نصر عثمان، الأميرالاي الخواض محمد، الأميرالاي محمد أحمد التيجاني، الأميرالاي

(١) حاج موسى، سابق، ص ٢١٢-٢١٣

محمد أحمد عروة، القائمقام عوض عبد الرحمن صغير، والقائمقام حسين على كرار[١].

وقد كانت عضوية هذا المجلس بالأقدمية لكبار ضباط الجيش لم يستثن من ذلك إلا الأميرالاي محي الدين أحمد عبد الله قائد القيادة الشرقية الذي لم ينل عضوية المجلس، مع تعيين القائمقامين عوض وحسين والذين يعتقد أنهما مقربين من نائب القائد العام اللواء أحمد عبد الوهاب[٢].

اختلف الناس حول هل كان الإمام عبد الرحمن على علم مسبق بالانقلاب أم لا؟ فالبيان الذي أذيع باسمه كان يؤيد الانقلاب تأييداً مطلقاً.

شهادة المرحوم السيد أمين التوم ربما هي أكثر الإفادات وثوقية لما للرجل من صدقية ظاهرة في مدوناته فهو قد يبرر ولكنه لا يكذب، كما وأنه أقرب قادة الحزب الذين دونوا إفاداتهم من الإمام عبد الرحمن المهدي. قال السيد أمين: (الإمام عبد الرحمن المهدي لم يكن على علم بالانقلاب ما في ذلك شك، ولو أنه علم لما سمح بوقوعه.. فعبد الله بك خليل برغم العلاقة المتينة التي تربطه بالسيد الإمام منذ عهد بعيد وبعد قيام حزب الأمة لم يطلع السيد الإمام على خطته الموضوعة لتسليم السلطة للجيش. ويتساءل كثير من المواطنين منذ ذلك الحين حتى الآن لماذا إذن أصدر السيد الإمام عبد الرحمن المهدي بياناً عقب الانقلاب عرف منه أنه موافق على ما حدث؟)[٣] وبرر العم أمين ذلك بأن الإمام عبد الرحمن خشي حدوث فتنة، وإنه يعتبر ضباط الجيش أبناءه ويمكن التفاهم معهم[٤]. ولكن يبدو أن الإمام أصدر بيانه بعد تفاهم مع السيد عبد الله خليل وبعد أن أقنعه بالخطة المتفق عليها مع الضباط من حكومة مؤقتة لكتابة الدستور وما إليه، وإلا لما كان الإحباط العظيم الذي أصابه لاحقاً.

على أي حال، فإنه وفي صباح اليوم التالي للانقلاب استدعى الإمام عبد الرحمن السيد عبد الرحمن علي طه، فلما ذهب إليه أطلعه الإمام على بيان مكتوب يفيد تأييده للانقلاب، وقال الإمام للسيد عبد الرحمن إنه كان يبحث عن ابنه السيد يحي ليذيع عنه ذلك البيان

(١) محمد علي صالح، وثائق امريكية عن عبود (١٣): انقلاب شنان.
(٢) حاج موسي، سابق، ص ٢١٤، و٢١٦
(٣) أمين التوم، سابق ص ١٦٧
(٤) نفسه

في المذياع ولكن لم يجده، وطلب منه أن يذيع البيان عنه. ومع أن السيد عبد الرحمن علي طه لم يكن يوافق على تسليم السلطة للعسكر وقد صوّت ضد الفكرة حينما عرضت على مجلس إدارة الحزب، فإنه لم يستطع مخالفة الإمام في طلبه لما يكنه له من تقدير واحترام فهو أبوه الروحي وحادي ركبهم نحو الاستقلال.

ذهب السيد عبد الرحمن على طه وأذاع بيان الإمام عبد الرحمن المهدي في الإذاعة السودانية، وابتعد بعدها عن العمل القيادي المباشر في الحزب، واتجه نحو مسقط رأسه في أربجي، ويعتبر البعض أن ذلك كان بمثابة احتجاج على تدخل العسكر في السياسة واحتجاج على تسليم السلطة لهم[1]. ولا شك أن ابتعاد السيد عبد الرحمن علي طه شكل خسارة كبيرة لحزب الأمة لما للرجل من نزاهة مشهودة وقدرات واستقامة وتجرد معلومات.

وأذيع كذلك بيان مماثل من السيد علي الميرغني، ومع أنه كان أيضاً يؤيد الانقلاب بقوة، إلا أن تأييد النظم العسكرية سوف يكون نهجاً مستديماً للختمية فليس في بيانه ما يستغرب، ويتندر البعض من أن السيد علي أوصى جماعته بعدم الدخول في أي أمر ساخن ولو كان طعاماً (الفتة لو حارة ابروها).. أما بيان الإمام عبد الرحمن فقد كان مستغرباً، ولا شك أنه ندم سريعاً، مثلما ندم البك، ولكن بعد فوات الأوان!

مفاجأة قادة حزب الأمة

كان قادة حزب الأمة وعلى رأسهم السيد الصديق المهدي معارضين للانقلاب حينما كان فكرة عرضها السيد عبد الله خليل لتجاوز أزمات البلاد، ولذلك فإن خطوة التسليم والتسلم تمت من وراء ظهرهم فتفاجأوا بها.

وقرأ السيد الصادق الخطوة أنها كانت انقلاباً على الشرعية داخل حزب الأمة، ففي رسالة (إلى أخي في الوطن) صادرة في ٢٨ يناير ١٩٦٥م قال: (*إن الإئتلاف الذي كان يحكم السودان قبل ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ عجز عن تحقيق الاستقرار في ظل الديمقراطية،*

(١) الرواية مأخوذة عن مكالمة هاتفية مع الدكتور فيصل عبد الرحمن علي طه في أول أكتوبر ٢٠١١م، وقد سبق ورواها لي السيد صلاح إبراهيم أحمد وإن كان لم يذكر أن الإمام عبد الرحمن كان يبحث عن ابنه يحي ليذيع عنه بيان التأييد.

واضطرب الحكم في السودان، وتقلب النواب في البرلمان، وانتشرت إشاعات مرعبة عن اتجاهات تهدد وحدة السودان واستقلال السودان، فاستغل فريق من المدنيين كل هذا الانفعال والتقلب واتفق مع قيادة الجيش السوداني لإحداث انقلاب عسكري ليتخلص من القيادة الشرعية لحزب الامة ومن الدستور وليحكم البلاد بالقوة.)

ويروي السيد أمين التوم ساتي مفاجأته، وقد كان وزير دولة بحكومة السيد عبد الله خليل، كما كان عضواً بمجلس إدارة حزب الأمة الذي رفض فكرة تسليم السلطة للجيش. فبعد أن تم تذليل العقبات ووافق السيد عبد الله خليل على تشكيل الحكومة الجديدة بعد أن كان رافضاً في البداية (وعقدت اجتماعات في منزله لتحقيق هذا الهدف، وتم الاتفاق بعد لقاءات عديدة بين قيادة حزب الأمة والوطني الاتحادي والجنوبيين على تكوين الحكومة وعلى عدد الوزراء من كل حزب، وعلى الأهداف العريضة التي ينبغي أن تعمل الحكومة لتحقيقها.. وفيما كان الموقف كذلك وحمدنا الله جميعاً على تذليل العقبات والصعاب التي واجهتنا، أوقظنا ليلاً نحن وزراء الحكومة في منازلنا بواسطة ضباط وجنود مسلحين من الجيش لنستلم خطابات كان واضحاً أنها كتبت على عجل، تشتمل على إعفاءات من مناصبنا الوزارية مع الشكر، ممهورة من الفريق إبراهيم عبود قائد الجيش. وفي الصباح، صباح ١٧ نوفمبر ١٩٥٨م عزفت الموسيقى العسكرية من إذاعة أم درمان ألحانها وصدر بعد ذلك بيان من قيادة الجيش يعلن قيام سلطة عسكرية في البلاد).. (وأصبح عبد الله بك خليل كئيباً حزيناً يقص قصته بعد فوات الأوان.. ويقول إن الضباط خدعوه!)[١].

قال التوم إن السيد الصديق المهدي رئيس حزب الأمة كان (غائباً في أوربا لأعمال خاصة عندما حدث انقلاب الجيش في السودان، وفي أوربا أعلن أنه يرفض هذا الانقلاب، وسيقاوم القائمين به حتى تعود الديمقراطية لشعب السودان مرة أخرى، وعاد لتوه إلى الخرطوم، وفي الخرطوم كرر ما قاله في أوربا بقوة وأعاد التكرار للوفود التي كانت تفد إلى داره من الأنصار وغيرهم[٢]).

والمفاجأة كذلك رواها السيد محمد أحمد محجوب الذي كان وزيراً للخارجية عن

(١) أمين، سابق، ص ١٦٤ - ١٦٥

(٢) أمين التوم، السابق ص ١٦٨

حزب الأمة في حكومة السيد عبد الله خليل وإن لم يكن عضواً بمجلس إدارة الأمة. حيث تحدث عن المفاوضات لتشكيل حكومة بين الأمة والوطني الاتحادي لتحل محل الائتلاف مع الشعب الديمقراطي، وكيف تعثرت بسبب إصرار كل من السيد عبد الله خليل والسيد إسماعيل الأزهري على أن يكون كل منهما رئيساً للوزراء، حتى انفرجت تلك الأزمة ووصلت لحل ولكن فجأة حدث الانقلاب. قال: (في الساعة ١١ ليل ١٦ تشرين الثاني تم الاتفاق النهائي على تشكيل ائتلاف بينَ حزبي الأمة والاتحاد الوطني وهو تحالف كان من شأنه الوصول إلى حكومة قوية ومستقرة).. (أويت إلى فراشي في تلك الليلة يغمرني شعور بأن مشاكلنا قد تكون قد حلّت حتى موعد اجتماع البرلمان صباح اليوم التالي، ولكني لم أنم كثيراً.. في الساعة ٤ صباحاً وصل عقيد و٣ جنود يحملون رشاشات إلى منزلي، سلمني العقيد رسالة تبلغني أن الجيش استولى على الحكم وأنني أُقلت من وزارة الخارجية، وشكرتني الرسالة على الخدمات التي أسديتها إلى بلدي وذهب الجنود[1]).

مفاجأة السيد عبد الله خليل لزملائه في حزب الأمة، وإخفاء أمر تسليمه للسلطة عنهم وراءها أسباب ربما أهمها أنه يعلم بعدم موافقتهم على الخطوة، كما كان لدى البك كما ذكرنا مخاوف أخرى ظهر بعضها في أقواله أمام لجنة التحقيق القضائية التي عقدت حول انقلاب نوفمبر بعد ثورة أكتوبر. من ضمنها مخاوفه أن بعض نواب حزبه قد عقدوا العزم على التخلص منه، قال البك للجنة: (وقد علمت من بعض نواب حزب الأمة أنهم بعد فتح البرلمان حيشيلوني من رئاسة الحكومة وأن يكون سكرتير حزب الأمة من أولاد المهدي وبالتالي رئيس الحكومة)[2]. ثم المسألة الأخرى التي ربما أثارت شكوكه من تحركات للحزب تجري من وراء ظهره وربما جعلته يتصرف بتلك الطريقة وهي معرفته بسعي الإمام عبد الرحمن لإبرام اتفاقية مع مصر عبد الناصر بدون علمه، وهو ما فصلناه آنفاً. هذا إضافة للمخاوف التي ذكرها أمام لجنة التحقيق بشأن تهديد وحدة البلاد، عبر تحركات تعلن الاتحاد بالاتفاق مع عبد الناصر، اجتمع فيها الشتيتان (الوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي) والتقى زعماؤهما في القاهرة.

(١) محمد أحمد محجوب، الديمقراطية في الميزان، سابق ص ١٨٠

(٢) حاج موسى، نقلا عن أقوال السيد عبد الله خليل أمام لجنة التحقيق القضائية، ص ٢٠٣

الشاهد، يبدو أن البك كانت حوله أجراس إنذار كثيرة تضرب، فاختار القفز في ظلام الانقلاب، مستنداً على كونه عسكري أصلاً وسوف يسهل عليه التفاهم مع العسكريين، ولكن مغفلاً أن الجيش بطبيعة تكوينه معادٍ لحزب الأمة، وهذا ما أدركه ربما منذ لحظة التسليم وما بدا فيها من خيانة ذكرها لاحقاً للسيد أمين التوم، وللحبيب الإمام.. ثم ما فتئت الإشارات تترى.

السيد أمين التوم قالها بمحبة للبك وللحقيقة وكلنا نحب البك ونجله، ونحب الحق: (التاريخ عندما يكتب لن ينكر على عبد الله خليل إسهامه في الحركة الوطنية منذ شبابه عندما كان ضابطاً في قوة دفاع السودان منذ مطلع العشرينات، وحتى جمعية اللواء الأبيض وثورة ١٩٢٤م، ولن ينكر التاريخ الدور الكبير الوطني الذي لعبه منذ اختياره سكرتيراً عاماً لحزب الأمة، والجهد العظيم الذي بذله ورفاقه حتى إعلان الاستقلال، وسيسجل التاريخ لعبد الله خليل العمل الجليل الذي قدمته حكومته الأولى للبلاد بعد الاستقلال في عام ١٩٥٦م، وحكومته الثانية التي كونها في مطلع عام ١٩٥٨م حتى الانقلاب العسكري في نوفمبر من العام نفسه، برغم الظروف الصعبة التي واجهتها.. ولكن التاريخ سيسجل الأخطاء أيضاً ولا يتردد في تدوينها.. فعبد الله خليل لم يطلع حزبه على تصميمه على تسليم السلطة للجيش بعد أن ووجه بمشاكل لم يتمكن من التغلب عليها، ولو أنه فعل ذلك لأمكن الوصول إلى حلول تجنب البلاد سطوة الحكم العسكري ووأد الحرية والديمقراطية).[1]

الحركة التركيزية للانقلاب

في ٢ مارس ١٩٥٩م حصل الانقلاب المعروف باسم «الحركة التصحيحية»، فالأميرالاي محي الدين أحمد عبد الله، الذي استثني من عضوية المجلس الأعلى، اتفق مع زميله قائد القيادة الشمالية الأميرالاي عبد الرحيم محمد خير شنان، وحرك الأول جزءاً من قوات القيادة الشرقية وحرك الثاني جزءا من قوات القيادة الشمالية والتقيا بالخرطوم في صباح الثاني من مارس ١٩٥٩م وحاصرت قواتهما العاصمة المثلثة، واعتقلا نائب القائد العام واثنين من أعوانه، وفي نفس اليوم اجتمع بقية أعضاء المجلس الأعلى وقرروا النظر في مطالب القوات المتمردة، فأُطلق سراح نائب الأمين العام

(١) أمين، سابق ص ١٦٦

وزميلاه، وأُمرت القوات بالرجوع لمراكزها، غير أنها رجعت مرة ثانية للخرطوم بعد يومين لاعتقاد قادتها بأن إجراءات سوف تتخذ ضدهما، وطلبا هذه المرة باستقالة المجلس الأعلى للقوات المسلحة، فاجتمع المجلس يوم ٤ مارس واتخذ قراراً بتركيز جميع السلطات في يد القائد العام، ووضع جميع أعضائه استقالاتهم في يده.

وفي اليوم التالي أصدر الفريق عبود المرسوم الدستوري الرابع لسنة ١٩٥٩م وعين بموجبه أعضاء المجلس الأعلى الثاني للقوات المسلحة وهم إضافة إليه: (اللواء أحمد عبد الوهاب، اللواء محمد طلعت فريد، الأميرالاي أحمد عبد الله حامد، الأميرألاي أحمد رضا فريد، الأميرألاي حسن بشير نصر، الأميرألاي أحمد مجذوب البحاري، الأميرألاي محي الدين أحمد عبد الله، الأميرألاي محمد أحمد عروة، الأميرألاي عبد الرحيم محمد خير شنان، الأميرألاي المقبول الأمين الحاج). فكان تشكيل المجلس نصراً لقائدي حركة ٢ و٤ مارس حيث اكتسبا عضوية المجلس الأعلى، وفي نفس الوقت فقد اثنين من مؤيدي نائب القائد العام هذه العضوية، (وهما القائمقام عوض عبد الرحمن صغير، والقائمقام حسين علي كرار) وإن كان هو نفسه قد احتفظ بهذه العضوية في التشكيل الجديد، ولكن إلى حين.

وفي ٤ مارس نفسه اجتمع المجلس الأعلى الجديد، وأصدر الأمر الدستوري رقم (٥) لسنة ١٩٥٩م الذي أيد سلطات القائد العام السابقة ودعمها بإعطائه صلاحية تعيين وإعفاء أعضاء المجلس الأعلى وأعضاء مجلس الوزراء ونقض قراراتهما. وفي يوم ٩ مارس ١٩٥٩م استخدم الفريق عبود هذه الصلاحيات بإعفاء نائبه اللواء أحمد عبد الوهاب من عضوية المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومن منصبه كوزير للداخلية، مما اعتبر نصراً لحركة مارس ومن ضمنها (وقف أطماع نائب القائد العام)[1] أو في الحقيقة بت أية علاقة مع سكرتير حزب الأمة.

هنا انقطع آخر أمل للسيد عبد الله خليل في إيفاء العسكريين بوعودهم، فقد كانت صلته الأقرب بينهم هو اللواء أحمد عبد الوهاب الذي كان التململ وسط الضباط من نفوذه يرجع لعلاقته بحزب الأمة.

وحينما سأل الأستاذ أحمد منصور الحبيب الإمام الصادق المهدي عن صحة ما ذكره

(١) حاج موسى، سابق، الصفحات ٢١٦- ٢٢٠

بيتر ودورد في كتابه (السودان الدولة المضطربة) من أنه: «كانت مجموعات الضباط في الجيش السوداني يتم تجنيدها من وسط خريجي المدارس السودانية، وذلك يعني من الناحية العملية: تركزها وسط أبناء المناطق النيلية في الشمال، بما يتضمنه ذلك من نفوذٍ واسع للطريقة الختمية في تلك المناطق». وافق الإمام على هذا التحليل وقال: *(الذي استطيع أن أؤكده ما قاله السيد بيتر ودورد صحيح، وأضيف: نعم كانت طبقة الضباط في الغالب ضد حزب الأمة وضد الأنصار.. هذه حقيقة السيد عبد الله خليل لم يأخذها في الحسبان، واعتبر أن اتفاقه مع القيادة العليا يكفي لتسييرِ الأمر، بينما عندما وقع الانقلاب أغلبية الضباط كانت متعاطفة مع فصل أية علاقة بين الانقلاب والسيد عبد الله خليل)*.

يروي السيد الصادق أحداث الانقلاب وتركيزه اللاحق، وموقعه منها قائلاً[1]:

(بعد الاستقلال مباشرة وقع الانقسام الأول في الحزب الوطني الاتحادي وأجريت انتخابات في فبراير ١٩٥٨ م ألف بعدها حزب الأمة والشعب الديمقراطي (الذي يؤيده الختمية) حكومة ائتلافية. كنت شخصياً قد اشتركت مع صغر سني في عمل سياسي كبير لصالح حزب الأمة في الانتخابات. وكان واضحاً لي أن المناخ السياسي لا يناسبني، لذلك اعتبرت مساهمتي في الانتخابات «مأمورية» انتهت بنهايتها والتحقت بالخدمة المدنية السودانية موظفاً في وزارة المالية. وبدأت أحس بحركة انقسام غير مرئي في حزب الأمة ما بين تيار يقوده رئيس الوزراء وسكرتير الحزب السيد عبد الله خليل ويحرص على الإبقاء على الائتلاف مع حزب الشعب الديمقراطي بقيادة السيد علي عبد الرحمن، وتيار مناوئ يقوده رئيس الحزب السيد الصديق المهدي يرى عدم جدوى ذلك الائتلاف وضرورة استبداله بائتلاف مع الحزب الوطني الاتحادي بقيادة السيد إسماعيل الأزهري.

حدة صراع هذه الرؤى ضمن عوامل أخرى هي أسباب اقتناع رئيس الوزراء بعدم جدوى العملية السياسية التعددية واللجوء للقوات المسلحة السودانية منقذاً للموقف، فأدى ذلك لاستلامها السلطة وقيام نظام ١٧/ ١١/ ١٩٥٨ م.

(١) من كلمته (مكانك تحمدي أو تستريحي) التي ألقاها يوم الاحتفال بعيده السبعيني بجامعة الأحفاد للبنات في ٢٥ ديسمبر ٢٠٠٥م

هذا الحدث جرني رغم أنفي للسياسة السودانية مرة أخرى فقد اعتبر أبي الانقلاب مؤامرة ضده وضد حزبه، وكان غائباً في أوربا فعاد مسرعاً، ولم يكن في استقباله بالمطار أحد فكنت سائق العربة التي نقلته من المطار وكان ثائراً على الانقلاب معلناً رفضه.

وقد صادف هذا الموقف موقفي لأنني منذ يوم الانقلاب قررت الاستقالة من الخدمة المدنية باعتبارها لم تعد كذلك، بل صارت أداة تنفيذية لإرادة غير شرعية، وهذا ما كتبته في خطاب استقالتي، فناداني رئيس قسمي السيد عبد الهادي حمدتو وقال لي نص خطابك هذا يجر لنا المتاعب فأرجو أن تكتب استقالتك دون إبداء أسباب سياسية، ففعلت.

لقد كانت خطة التسليم والتسلم التي اشترك فيها السيد عبد الله خليل، مبنية على اتفاق معين مع قيادة القوات المسلحة يستلموا فيها الحكم ويكونوا حكومة قومية ويكتبوا دستور البلاد الدائم ويعلنوا الانتخابات بعد ستة أشهر. هذه الخطوة عارضها ١٣ من أعضاء المكتب السياسي للحزب الخمسة عشر، وحتى السيد عبد الرحمن علي طه الذي أذاع بيان التأييد من الإمام عبد الرحمن المهدي فعل ذلك فقط احتراماً لرغبة الإمام وابتعد بعدها عن العمل السياسي، ثم سرعانما لحق السيد عبد الله خليل بمعارضة الانقلاب.

فبسرعة تحركت القيادتان الشرقية والشمالية «لتصحيح» اتجاه الانقلاب في بداية عام ١٩٥٩ م، وبسرعة أدرك الإمام عبد الرحمن الذي قبل الانقلاب كأقصر وسيلة لكتابة دستور البلاد ثم استئناف الديمقراطية، أدرك بطلان هذه التوقعات.

وأنا شخصيا أعتقد أن الإمام عبد الرحمن وقد كان حساساً جداً للأحوال العامة قد فجع ومات أكثر الناس حزناً، وقد سمعنا منه في أواخر أيامه ودون في أوراقه الخاصة ما يدل على حالة قصوى من خيبة الأمل.

وبعد وفاته في مارس ١٩٥٩ م خلفه والدي المعلن عداءه لنظام الحكم العسكري المتعرض حتماً لقهره. هذا المشهد هو الذي أجبرني على التخلي عن خططي الخاصة بمواصلة تعليمي والمهنة الزراعية والوقوف إلى جانب أبي في مواجهة البأس الدكتاتوري).

***

صورة أخرى للإمام عبد الرحمن

إن الاعتراف للإمام عبد الرحمن بفضله صار الآن شيئاً شائعاً في الأوساط الأكاديمية، وإن كانت صورته في الإعلام لا زالت مشوهة جراء الدعاية السلبية المكثفة التي واجهها في حياته، ومثلما حدث للمهدية نفسها فقد بدأ الاعتراف في أوساط الأكاديميا، وللغرابة بين أساتذة التاريخ الإنجليز أنفسهم فقد كان مؤرخون أمثال ب.م. هولت ثم ريتشارد هيل سباقين في النظرة للمهدية بطريقة خلاف ما خطط ونظّم قلم المخابرات البريطاني ونجيت باشا، فاستكتب سلاطين وأوهرولدر وفوزي باشا وغيرهم، وتبع التصحيح المؤرخون السودانيون فغيّر المرحوم مكي شبيكة اتجاهه الأول، ثم فاق الوطنيون في نظرتهم الإيجابية للمهدية في جيل المؤرخين الوطنيين الثاني حيث جاء مخرج الآثار المرحوم البروفسر محمد إبراهيم أبو سليم والذي أخرج درر المهدية وأفرد لها جزءاً كبيراً من إنتاجه كمؤرخ مع أنه كما ذكر بدأ منزعجا من تدريسهم مادتها التاريخية في الجامعة باعتبارها عهداً للدراويش لا يصلح للدراسة!

ومثل أبو سليم فعل البروفسر حسن أحمد إبراهيم الذي كان مقتنعاً أن الوثائق ستثبت له عمالة السيد عبد الرحمن المهدي ولكنه نقّب فيها غيّر رأيه وخرج في كتابه (الإمام عبد الرحمن المهدي) بأنه استطاع التغلب على سياسة البريطانيين لاحتوائه و(خرج الإمام المغوار في نهاية المطاف إلى السطح مهندسا لاستقلال السودان، وأهم شخصية سودانية في القرن العشرين دون منازع)[1]. وتتالت بعد ذلك الاعترافات بالإمام عبد الرحمن وسط المؤرخين، حتى كانت الندوة العلمية التي عقدت احتفالا بمرور مائة عام على مولده مناسبة أدلى فيها فطاحلة التاريخ في السودان بدلوهم اعترافاً بفضله[2].

(١) حسن أحمد إبراهيم الإمام عبد الرحمن المهدي ص ١٣٧

(٢) يوسف فضل حسن، محمد إبراهيم أبو سليم، الطيب ميرغني شكاك (تحرير) الإمام عبد الرحمن المهدي: مداولات الندوة العلمية للاحتفال المئوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، وشارك بالأوراق في هذا السفر كل من: د. الطيب ميرغني شكاك، تقرير اللجنة القومية للاحتفال بالعيد المئوي للإمام، ويوسف فضل حسن، رئيس اللجنة العلمية: الإمام عبد الرحمن: صرح مؤسسي، والصادق المهدي عبد الرحمن الصادق إمام الدين، محمد إبراهيم أبو سليم: السيد عبد الرحمن وإمامة الأنصار، حاج موسى كوكو: السيد عبد الرحمن وإعادة بناء الأنصار، عبد الحليم محمد: مع الإمام عبد الرحمن المهدي، أمين التوم: صور من حياة الزعيم الإمام=

وبرأينا صارت مسألة الاعتراف به وبدوره الأساسي كبانٍ للسودان الحديث ومحقق لاستقلاله الثاني في دوائر الإعلام والرأي العام مجرد مسألة وقت.

أول مرة نشهد فيها الوالد الحبيب وهو يبكي، وهو مشهد كان نادراً جداً لشخص عصي الدمع، قبل أن يستمطر حال السودان مؤخراً دموعه؛ كان حينما روى لنا عن وفاة الإمام عبد الرحمن المهدي وهو يعرّفنا بسيرته في ثمانيات القرن الماضي. بالنسبة لي كان المشهد أكثر من موحٍ، كانت الفكرة التي تسللت لذهني من الروايات حول الإمام عبد الرحمن تتحدث عن صولجان ورهبة وأبهة، وهي صورة أبعدته عن وجداني المتيّم بسيرة الإمام المهدي عليه السلام وتواضعه وزهده الأسطوريين، ولكن حفيده وهو يروي عنه وكيف كان يناقشه ويراجعه في كل ما يعن له، ثم الهزة العاطفية لمشهد موته جعلتني أعيد قراءة الإمام عبد الرحمن من جديد، ثم كانت ورقة السيد الصادق عنه (عبد الرحمن الصادق إمام الدين) زاداً لفهم الدور المختلف الذي قام به في إطار المهدية.

لقد ظُلم الإمام عبد الرحمن كثيراً، وتقديري أن أقرب الناس إليه ما كانوا يفهمونه، فمن يراه بعين المادة ويعجبه ثراءه وجوده الأسطوري ومظاهر الأبهة من حوله، وانصياع الناس لأمره، يخفى عليه مده الروحي وقيمته الإنسانية وطبيعته المتواضعة بحيث يجادله مرافقوه الأقربون والذين يشي شكل العلاقة بينه وبينهم بأنهم أتباع منقادون فحسب.

وهي صورة بظلمها الفادح صورها حتى بعض أقرب الشعراء منه وأكثرهم مدحاً له وهو المرحوم عبد الله عمر البنا. فالبنا هجا في قصيدته الآيسة (تحية العام الهجري) زعماء البلاد التقليديين الثلاثة بدون أن يذكرهم، مطلع القصيدة هو:

=عبد الرحمن المهدي، فدوى عبد الرحمن علي طه: شخصيات حول الإمام، محمد هاشم عوض السيد عبد الرحمن المهدي رائد التمويل بالصيغ الإسلامية، عادل شرفي دائرة المهدي المؤسسة الاقتصادية للأنصار، كامل منصور ومحمد آدم جلابي دور الإمام عبد الرحمن المهدي في التنمية الزراعية، سيد الحوري الإمام عبد الرحمن المهدي والتعليم، محجوب محمد صالح دور السيد عبد الرحمن في نشأة وتطور الصحافة السودانية، محاسن عبد العال وسارة نقد الله ومحاسن جيلاني وسعاد إبراهيم عيسى دعم الإمام عبد الرحمن للحركة النسائية وتعليم المرأة، الطيب محمد الطيب الشعر والمدائح بين يدي الإمام عبد الرحمن، ومحمد إبراهيم أبو سليم الإمام عبد الرحمن المهدي والقصيدة المادحة

يـا ذا الهـلال عـن الـدنيا أو الـدين ... حدّث فـإن حـديثا منـك يشـفيني[1]

وأبيات الهجاء هي:

والنـاسُ في القطـر أشـياءٌ ملفقـةٌ ... فـإن تكشّـف فعـن ضـعفٍ وتـوهين

فمـن غنـي فقيـر في مروءتـه ... ومـن قـوي بضـعف الـنفس مرهـون

ومـن طليـق حبـيس الـرأي منقـبض ... فاعجب لمنطلـق في الأرض مسـجون

وآخـر هـو طـوع الـبطن يبـرز في ... زي الملـوك وأخـلاق البـراذين

وهيكـل تبعتـه النـاس عـن سـرف ... كالسـامري بـلا عقـل ولا ديـن

يحتـال بالـدين للـدنيا ليجمعهـا ... سـحتاً وتـورده في قـاع سـجين

وفسّر الناس بأنه يعني قادة البلاد الروحيين السيد علي الميرغني والشريف الهندي والإمام عبد الرحمن المهدي وقيل إنه يعني الأخير بالبيتين الأخيرين.

ما برحت تلك الأبيات تعذبني، ليس لمحض هجائها، فقد هجا الإمام عبد الرحمن كثيرون، وكانت الصحافة المصرية الرسمية في ذلك الزمان ليس لها شغل سوى تدبيج المقالات في ذمه، ولكن لأن صاحبها من أكثر الناس مدحاً للإمام عبد الرحمن المهدي، ففي ديوانه أربع قصائد طوال في مدحه وقد أهدى إليه ديوانه، فما هي تلك التقلبات التي حدت به ليصوغ كلام القادحين بذلك الشعر المر؟ وكان هذا أول طريقي لاستنتاج خطل استكناه الفكر من الشعر، وهو مسلك كثير من مفكرينا ومثقفينا فما يبحثون فكرة أو يقلبون رأياً حتى يستشهدون بالشعر دليلاً، والشعراء قلّب كما وصفهم ربهم، إنهم- إلا من رحم- في كل واد يهيمون!

إن النقد الأدبي الذي يبحث في رؤى الشعراء ويحللها مطلوب، كذلك إيراد الشعر من باب رصد الحياة الفكرية والأدبية والاجتماعية ككل، كما نحاول هنا إيراد الشعر المتعلق بالمناسبات التي نتطرق إليها، ولكن ليس من باب التأريخ للفكر السوداني فللفكر أدواته التي تخاطب الحجة والمنطق والبرهان العقلي، والشعر أداة لمخاطبة

(١) القصيدة من أشهر قصائد الشاعر، منشورة في ديوانه- عبد الله محمد عمر البنا ديوان البنا- الجزء الأول دار جامعة الخرطوم االنشر- الطبعة الثانية ١٩٧٦م- ص ٦٤- ٦٥

الوجدان!

الشاهد، إن صورة الإمام عبد الرحمن برأيي والتي تند عمن قرّب منه بحق، وليس فقط فيزيائياً، لا زالت مخفية.

وكنت أدهش حينما يروي لنا العم بدر إسحق وشكل العلاقة أنه (طباخ) للإمام، كيف كان يناصحه ويجادله وكان له رأي في كل شيء وشخص حول الإمام.

كذلك تروى من نوادر الأسرة مجادلات أو غضبات العم الحبيب المرحوم عبد اللطيف مرسي وكان أيضا يطبخ للإمام وهو من أقاربه، ويشاع أن أهلنا من لبب فيهم حدة وشعور زائد بالكرامة، وكان عمنا عبد اللطيف كذلك، وفي مرة وجدته أمي رحمة رحمهما الله وهو واقف تحت شمس الظهيرة يبدو عليه الحنق والغضب، وكانت رحمها الله ممن يخففون المواجهات بالمزاح فسألته: مالك يا عبد اللطيف مادي قدومك كدة؟ ومصطلح (مد القدّوم) أي مط الشفتين للأمام، يستخدم لديها كناية عن الغضب وأحياناً عن المشغولية والاهتمام بشيء ما لأقصى درجة! فقال لها بغضب (دة كله من كالك، كليه إن شاء الله يتمد يجيب كرسي يقئُد في دله)! أي كل هذا من خالك فدعي شفتاي تمتدان في الشمس وليحضر كرسياً ويجلس تحت ظلهما! فقد كان عمنا أو جدنا عبد اللطيف فيه عجمة أهل لبب! وقد ضحكت أمي رحمة فيما تقول الرواية وذهبت للإمام حكت له عن غضبة عبد اللطيف المضرية ففضل أن يطيّب خاطره على الجلوس في ظل «القدوم».

وقد أوردنا في الفصل الأول قول السيد الصادق إنه كان يتعامل مع الإمام عبد الرحمن بيسر لم يكن يجده في التعامل مع والده.

إن الذي يقرأ ما أنقذ من مذكراته يجد روحاً منبسطة تمد صلاتها للجميع ولا ترضى القطيعة مع أحد، ويجد كدحاً أسطورياً وتلازماً مع القضية الوطنية، قضية الاستقلال.. لو كان الإمام يسعى للدنيا ليجمعها لما كان لاقى ربه مديوناً، فقد بدد كل ما جمع من مال في سبيل قضية الوطن. كما أنه رفض المال والجاه وقد أتياه يسعيان ولم يكن مطلوباً منه سوى أن يرضى بسيادة مصر الرمزية على السودان. عرضت عليه أموال طائلة، وأن يكون نائباً للخديوي، أما هو فليس فقط لم يفكر في الأمر بل استشاط غضباً.

ولنستمع للرواية بلسان السيد غراهام توماس الذي قال إنه ذهب له في قبة المهدي

فوجده ولونه متغير ومن الواضح أنه هائج ومغتاظ، وقال له إنني غضبان جداً فسامحني، وسيخبرك عبد الله عم حدث.. قال: (وفيم كان السيد الكبير يغادر المكان دخل عبد الله خليل ومعه شخصان كانا أمريكيين، فودعهما ورافقهما إلى سيارة الرولز رويس قبل أن يلتحق بنا.. ثم أوضح لي أن أحد الرجلين، والذي كان روبرت ميرفي «وكيل في البنتاغون» قد سأل السيد عبد الرحمن أن يعترف بالملك فاروق ملكاً على السودان. وبالمقابل فإن السيد يستطيع أن ينال أي لقب يرغبه ويضمن لنفسه دخلاً سنوياً مقداره ثلاثة ملايين جنيه كل عام)...(وعندما سألتُ عن اللقب المقترح أجاب عبد الله خليل أنه «نائب خديوي»)..(واستشاط السيد عبد الرحمن غضباً لكن بدماثته المعهودة أخبر الأمريكيين أن مقترحهم هذا «مرفوض بالكامل»)[1].

لقد قضى الإمام عبد الرحمن حياته كلها يعمل لأجل الاستقلال الكامل، وبعد انتخابات ١٩٥٣م انسدت الآفاق أمام وجهه إذ مني حزب الأمة بهزيمة نكراء، فمهما أنفق من ماله ما كان ليستطيع مقابلة صرف الحكومة المصرية البذخي على الدعاية للاتحاد، ولكنه لم يستسلم، واندفع وحزبه يحشد الجماهير ويدعو للاستقلال سراً وجهاراً وليلاً ونهاراً، فلما تلمس من الزعيم الأزهري صاحب الأغلبية ميلاً نحو شعار الاستقلال واستعداداً لإعلانه بالإجماع من داخل البرلمان استبشر، ولم يتفق مع رأي أولئك الاستقلاليين الذين رفضوا الفكرة باعتبار أن الاستقلال رايتنا فكيف نسمح للأزهري أن يكون رافع علمه؟

لو كان يفكر في جاه أو مكانة لنفسه لفكر مثل هؤلاء ولتردد، ولكن كان كل همه أن يرى علمي المحتلين وقد هبطا وعلم السودان المستقل يرفرف عالياً.. تلك اللحظة التي استمطرت دموعه فانهمرت تحكي قصة عذاب بدأت برؤيته المنامية وهو ينادي مولى نصر الدين أخيه قائلاً (يا جابر ارفع الراية).. ومرت بكسرة كرري، ثم مذبحة أم دبيكرات، ثم مقتلة الشكابة وإصابته بالطلق الناري فيها، ثم ذلك الكدح الطويل القاسي الذي ناور فيه لينتزع حق بلاده ليأتي اليوم الذي يقول فيه (يا أزهري.. ارفع الراية).. بكى فقال المحجوب:

أجرى دموعك دون الناس قاطبة ... سر لغيرك ما باحت به الحقب

(١) غراهام توماس ص ٥٢-٥٣

قـــدوثقت ذمـــم التـــاريخ بيـــنكما ... بمثـل مـا تجمـع الأرحـام، والنسـب
آلاؤك الغـــر للأوطـــان ســـابغة ... عيت بها ألسـنُ واسـتعجمت كتـب
وقفـــت وقفـــة فـــدائيين عاتيـــة، ... تحمـي الـذي شـيدالآباء أو كتبـوا
ناديـــت، حريـــة الســـودان تضـــحية ... لا مغـنم هـي للأحـرار، أو سـلب
هـي الرسـالة لا جاهـاً طلبـت بهـا، ... وقصـرت دونـك الألقـاب والرتـب
بـــذلت كـــل ســـنى في صـــيانتها ... فكـان منـك عليهـا العمـد والطنـب
لولاك وحدة هذا الشـعب مـا التأمـت ... ولاسـتذل بهـا الأدنـون واغتربـوا

صدق المحجوب في رثائه!

استهداف حكومة عبود

وفي أواخر حياته ذهب الإمام عبد الرحمن وبحلقه غصة مـن الغـدر والخـداع الـذي تعرض له. فمثلما سقنا أعلاه بكلمات السيد الصادق، فإن الإمام عبد الرحمن أعلن تأييد خطوة تسليم السلطة لعبود وفق خطة معينة هي تكوين حكومة قوميـة لتجيـز الدسـتور وتجري بعد ذلك انتخابات عامة حرة، ولكن عبوداً ومجلسه العسكري الانتقالي انقلبوا عليها وخانوا عهدهم للبك عبد الله خليل، بل سرعانما قلبوا لحزب الأمة بالذات ظهـر المجن وانطلقوا في عداء مخصص له.

تغيرت الخطة مع البك، واتفق رأي القادة العسكريين عـلى عـدم جـدوى الحكومـة القومية وأنها لا تخدم الغرض الذي من أجله تـدخل الجـيش وهـو إيجـاد الاسـتقرار، ولذلك استقر رأيهم على أن تتكون الحكومة عسكرية أساسـاً بمجلـس أعـلى ومجلـس وزراء يشترك فيه بعض المدنيين.[1] وبينما اتفق رئيس الوزراء مع الفريق إبراهيم عبـود على أن يتم التسليم والتسلم بحضور كل أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة، فقد حضر عبود لوحده، وحكى المرحوم أمين التوم عن توجس البك منذ يومها[2].

وكما قلنا لم تقف المسألة عند حد نقض الاتفاق الذي عقده قادة الجيش مـع السـيد

(١)(حاج موسى ص ٢١١-٢١٢)

(٢)أنظر/ ي مذكرات العم أمين التوم ذكريات ومواقف

عبد الله خليل، بل إن قيادة القوات المسلحة صارت متجهة لتوجيه العداء لحزب الأمة خاصة بعد حركة ٢ و٤ مارس ١٩٥٩م التي سعت بالأساس لتهميش اللواء أحمد عبد الوهاب الأقرب إلى حزب الأمة داخل المجلس فتمت إقالة اثنين من أعوانه وبعدها بخمسة أيام أقيل هو نفسه من عضوية المجلس الأعلى للقوات المسلحة ومن الوزارة كما فصّلنا.

هذه الحركة قامت أصلا بهدف عداء وإقصاء حزب الأمة، وقد عبر أصحابها عن أهداف حركتهم بأنها: وقف أطماع نائب القائد العام (اللواء أحمد عبد الوهاب) ووقف (النفوذ الأجنبي) الذي كان يشجعه النائب بالتعاون مع عبد الله خليل (بزعمهم)، وتدعيم سلطات الفريق إبراهيم عبود، وحل المشاكل المعلقة بين السودان وشقيقته الجمهورية العربية المتحدة[1]، فهي حركة مناهضة لحزب الأمة اتحادية الهوى، إذا استحضرنا الاستقطاب الأكبر في الساحة السياسية يومها بين الاستقلاليين والاتحاديين.

أما النفوذ الأجنبي المشار له فهو مسألة العلاقة بأمريكا، وقبول حكومة السيد عبد الله خليل لاتفاقية التعاون الاقتصادي مع أمريكا، ومع أنها أجيزت بالإجماع داخل مجلس الوزراء إلا أنه وحين تقديمها في البرلمان وقف بعض الوزراء من حزب الشعب مع موقف الوطني الاتحادي المعادي لها. بينما قدمت تلك الاتفاقية عدداً من المشاريع التنموية غير المشروطة للبلاد. وما يشاع في بعض الكتابات عن أن الحزب قام بالانقلاب لتمريرها للرفض الشعبي لها مجرد أوهام. لأن الاتفاقية كانت قد أجيزت من داخل البرلمان في النهاية، وما فعله الانقلاب هو إجازتها حتى بدون الشروط التي وضعتها الحكومة الديمقراطية، وكان عراب ذلك هو القيادي الاتحادي البارز السيد أحمد خير الذي عمل مع جماعة نوفمبر منذ قيام الانقلاب كوزير للخارجية، وكان أبعد الناس عن حزب الأمة وأكثرهم عداءً له.

فبعد اثني عشر يوماً من الانقلاب وفي يوم ٢٩/ ١١/ ١٩٥٨م أصدر مجلس وزراء الانقلاب القرار التالي: «رأت اللجنة التي كونها المجلس بالإجماع أنه لا يوجد في اتفاقية المعونة الأمريكية ما يحد من استقلال السودان أو يخدش كرامته، إن اتفاقية المعونة الأمريكية كانت لسوء الحظ هدفاً للمناورات الحزبية في الماضي، كما أن التحديد الذي

(١)(حاج موسى، ١٩٧٠، ص ٢١٩-٢٢٠).

اشترطه البرلمان المنحل كان عقبة في سبيل إنجازها والاستفادة منها على الوجه الأكمل، وبالنظر لكل ذلك فقد أصدر القرار التالي بالمصادقة على اتفاقية المعونة الأمريكية المتضمنة في خطاب وزير الخارجية السابق المؤرخ ٣١-٣-١٩٥٨م الذي بعثت به الحكومة السابقة للحكومة الأمريكية، كما يرى المجلس أنه لم يكن ضرورياً تحديد الميادين التي تقتصر عليها المعونة، وفي واقع الأمر فإن التحديد الذي فرضه البرلمان المنحل كان عائقاً دون الاستفادة الكاملة من المعونة»[١].

ومنذ بداية الانقلاب رحب به نظام عبد الناصر، وكأن لم يكن له من الديمقراطية السودانية وأقطابها عون وعضد أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦م حيث استند كلية على مقدرات السيد محمد أحمد محجوب الدبلوماسية الفذة[٢]. وحينما قام انقلاب نوفمبر ١٩٥٨ أعلن عن نفسه أنه (حركة مباركة) لكن أنعم عليه الرئيس المصري عبد الناصر بلقب (الثورة) وتحدث الطرفان عن (الجفوة المفتعلة)[٣] طعناً في البك وحزب الأمة. فتسمية حركة عبود بالثورة هو نيشان مصري كما أثبت عمنا الأستاذ محمد سعيد محمد الحسن، مما يثبت تأكد عبد الناصر أن الانقلاب بعيد عن تحكمات البك، عدوه اللدود.

وكانت الملاحظة أن مصر التي صورت في إعلامها قضية المعونة الأمريكية على أنها ارتماء في أحضان الغرب، فألبت ضدها حزب الشعب الديمقراطي (وهو جزء من الحكومة) والوطني الاتحادي والنقابات، لم تواصل حديثها عنها بنفس الطريقة حينما قبلتها حكومة عبود (ولم يقل الإعلام المصري إن الحكم العسكري في السودان يرتمي في أحضان الإمبريالية، لأن مصر تعرف أن الحكم العسكري سيقوم بالدور الذي تطلبه منه)[٤].

المشاكل المعلقة مع مصر المشار إليها كانت: وقف مطامع ناصر في حلايب، وتعثر الاتفاق على قيام السد العالي وفق اتفاقية ١٩٥٩م، والتي انتقصت فيها الحقوق

(١) حاج موسى، السابق، ص ٢٣٩

(٢) وثق هذا الأمر بجلاء الأستاذ محمد سعيد محمد الحسن في كتابه (عبد الناصر والسودان)

(٣) نفسه

(٤) قسم السيد، الصادق المهدي وأزمة الديمقراطية في السودان، ص ٢٨٥

السودانية وأضير فيها جزء عزيز من شعب النوبة في شمال السودان. وحتى البحيرة التي تكونت جراء السد وأغرقت للنوبة أرضهم وتراثهم حتى غدت تتنفس تحت الماء – بتعبير الأديب المصري النوبي الأستاذ حجاج أدول[1] – سميت ببحيرة ناصر، الشيء الذي استهجنه السيد إبراهيم أحمد في بعض كتاباته ذلك الزمان مقترحاً، بعد كل ما وقع برأس النوبة جراء السد، أن تسمى البحيرة المتكونة خلفه (بحيرة النوبة) على أقل تقدير![2]

وكانت حكومة السيد عبد الله خليل تفاوض مصر لتقديم تعويضات مناسبة للمتضررين، وكادت تصل لاتفاق حولها، بينما قامت حكومة عبود تحت الاتجاه الجديد، بقبول صيغة تغيرت فيها تقديرات التعويضات من ٣٠ مليوناً إلى ١٥ مليون جنيه فقط! وكل هذا يظهر أن انقلاب عبود عارض في مهده كل سياسات حزب الأمة المنحازة للوطن وليس للأطراف الأجنبية.

وأن هذا التدابر مع سياسات الحزب ورجاله خاصة رئيس الحكومة عبد الله خليل كان منذ البداية، وبدا جلياً في الاندغام الناصري، ولكن الأمر استفحل وغدا مواجهة مكشوفة واستهدافاً واضحاً بعد الحركة التركيزية، العدائية للبك وصديقه أحمد عبد الوهاب.

رحيل الإمام عبد الرحمن الأليم

سار الانقلاب في اتجاه الاستهداف والعداء لحزب الأمة بالذات، وفي مارس نفسه الذي جرت في أوله الحركة الشنانية التي شنت على حزب الأمة حربها، تفاقمت على الإمام عبد الرحمن علة القلب التي كان يعاني منها، ولقي ربه راضياً مرضياً عصر الثلاثاء ٢٤ مارس ١٩٥٩ م الموافق ١٥ رمضان ١٣٧٨ هـ.

كان يوما عصيباً ليس على الحبيب الصادق وحده، وخنّقت الشمس والقمر، الشيء الذي جعل أحبابه أنصار الله يظنون الكون ناح معهم، وقال محجوب ود سمورة مادح

(١) الأستاذ حجاج أدول أديب وكاتب وناشط مصري نوبي وله كتاب (النوبة تتنفس تحت الماء) يرصد فيه بعض أوجاع النوبة ومظالمهم.

(٢) انظر/ ي عثمان أحمد الحسن إبراهيم أحمد: حياة إنسان بين الأصالة والمعاصرة

الجبلاب يشير للحادثة بقوله:

تكفينـــا إشـــارة بـــدرين الـــتمام الكسفوا يوم رحولـه وخلـوا الكـون

وأشار للواقعة كذلك المحجوب في رثائه:

يا صانع المجـد للسـودان قـد غربـت شمس النهـار وهـذا البـدر يحتجـب

وذلك الكسوف مثبت في قوائم الكسوف العالمية.[1] وهي حادثة تعيد للأذهـان مـا حدث يوم وفاة إبراهيم ولد الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث كسفت الشـمس وقـال بعض الناس إن ذلك لموته، فقال الرسول : «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِـنْ آيَـاتِ اللَّـهِ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[2].

وقال السيد جراهام توماس وهو من البريطانيين الذين عملوا بالسودان وتعرفوا إليه: (والحق أنه ليس هناك فرد سوداني يقف نداً لذلك الفقيد. ولقد تم نعيه إلى العالم، لا مـن قبل أتباعه (الأنصار) فحسب، بل من قبل الكثيرين غيرهم).. (يومذاك قدّر عدد الـذين ساروا في جنازة الرجل بثلاثة ملايين)[3].

ويصور السيد أمين التوم المشهد الباكي بعاطفة حارة، ويذكر كيف هطلـت الـدموع الكثيفة على وجهه وهام على وجه الأرض يقود سيارته تائهاً لا يستطيع الوصول لسـرايا الإمام بالخرطوم حيث فاضت روحه الطاهرة، وظل ضائعاً ساعتين وزيادة حتـى وجـد جمعاً ضخماً وأدرك أنه أمام دار الإمام، وروى كيف بكـى الأنصـار رجـالاً ونسـاءً يـوم الدفن وهم المعروفون بالجلد، حتى قام فيهم العم أزرق مصطفى طالباً إياهم ألا يبكوا فالإمام لم يمت إذ تظل أعماله باقية وقد خلّف فينا الصـديق، وقـال إنـه بعـد أن صـمت أجهش هو ذاته بالبكاء، وبكى هنا الصديق الذي كان صابراً محتسباً، وبكى الناس كلهم أجمعين![4]

---

(١)مؤرخ لكسوف الشموس وخسوف القمر يومها بالتـالي: Mar 24, 1959 3:02 PM Sun 3 Ari 26 Opposition Moon 3 Lib 26(LE) في الموقع
http://cafeastrology.com/eclipsesolarlunar.html

(٢)متفق عليه

(٣) توماس، مرجع سابق

(٤) أمين التوم، سابق ص ١٨١ وما بعدها

لقد بكاه السودانيون بكاءً مراً، ولا تجد شاعراً لم يرثه رثاءً حاراً. منهم من امتدحه في حياته كالمجذوب، ومنهم من لم يمتدحه بحياته وإن حركه مماته كالعباسي. ولصدق وحرارة ذلك الشعر فإننا نظن أن ديوان رثاء الإمام عبد الرحمن المهدي هو من أبدع ما كتب شعراء السودان. سواء أكان ذلك (نحاس الهول) للمجذوب، ومطلعها:

في ليلة هبت علي فجعة ... دق نحاس الهول في البقعة
أيقظها الحنان من رجعه ... ونوحه المكتوم في الظلمةِ
أنينه الأبكم لا يشتفي ... أجّ بصدر الليل كالغصةِ
وفي صدى الليل صدى مأتم ... يهيم بين الوجد والحيرة
اسألني لا ترى مهربا أين ... وسهم الروع في مهجتي
قد مات مهدي الورى ميتة ... ثانية في وقدة الثورة
والعلم الخفاق ملء الوغى ... نكسه المقدار في الحومة

وفيها:

يا بقعة المهدي أم الوطن ... دق نحاس الهول ملء الزمن
فقيّدي الأفراس مجنونة ... وهيئي القبر وهاتي الكفن
غاب أبو الصديق في رمسه ... فغاب فيه الصادق المؤتمن
من راقب الله فما سره ... مختلف عما أباح العلن
من غالب الدنيا بأخلاقه ... ومن سما بالصبر فوق المحن
ومن سقى بالعفو أعداءه ... ولم يجرعهم سموم الإحن

أو كانت قصيدة الشاعر والزعيم السياسي محمد أحمد المحجوب (الفقير الغني) وفيها:

الواهب المال لا من يكدره ... والصادق الوعد لا مين ولا كذب
بكى المصلى جبين الأنبياء به ... وفارق المنبر الصناجة الأرب
وخالط الناس يتم يوم فرقته ... ففاتهم فيه يوم النازلات أب

إلى أن قال:

وأوشك الناس من شك ومن جزع ... أن يحسبوك إلهاً ليس يحتسب
وأنت من لقن الأنصار حجتهم ... أن المنية ما من وردها هرب
عزوا عن الشرك إلا أنهم فجعوا ... في صارم عضب ذكر به نكبوا
كأنهم عمر يوم الرسول مضى ... والعين دامعة واللب مستلب

وهناك رائعة الشاعر عبد القادر كرف، ومطلعها:

لم تخب شعلتك التي تتألق يفنى ... الزمان ونور هديك يشرق
دانت لك الأرض التي أحبيتها ب ... ولائها وجثا التراب الأعبق
وكأن موطئك الكريم بأرضها قبلٌ ... وغرسك في ثراها موثق
تلد الرجال ولا كمثلك إنها ... أمٌ أحق بها الحفي الأرفق
أجنيتها ثمر البطولة بعد ما ... فُلّ الحسام بها وعز المنطق
وبعثت في قلب الزمان كتابها ... ونشرت ألوية الكرامة تخفق

إلى أن قال:

وتآلف الأنصار حولك عصبة ... وأحاطهم منك الوفي الأرفق
حملوا لواء أبيك وهو مؤرز ... بالنصر متشح به ومنطق
للدين للوطن الكريم صدورهم ... تحمي وفيهم غضبة وترفق
خفوا بنعشك مسرعين كأنما ... فصموا عرى التاريخ ثم تفرقوا
هيهات يعصمهم وإن بعد المدى ... إلا طريقك في الحياة الأوفق
وإلى ذراك يخف من أرواحهم ... طير يحط جناحه ويحلق
والمستقون بماء حوضك أنكروا ... أن تصنع الظمأ الفلاة الفيهق
فإذا هموا استمعوا نداءك أقبلوا ... وتآلفوا زمراً لديك واحدقوا
فإذا الخلاص على يديك جميعه ... وإذا المنى كل المنى يتحقق

وإذا لسان الحق أبلغ حجة ... وأرق حداً في الخطوب وأزلق
يا هاديا والناس في ليل الهوى ... يتلددون ورأيهم متفرق
ما أن تزال وراء كل حقيقة ... ترخي العنان لها يداك وتسبق

وقد روى لي الأخ عمر الحبر يوسف نور الدائم إن مولانا دفع الله الحاج يوسف سأل والده دكتور الحبر عن قصيدة المحجوب في رثاء السيد عبد الرحمن أليست جيدة فأجاب والده طبعاً جيدة جداً، فقال مولانا دفع الله: (لكن بيت كرف في رثاء السيد عبد الرحمن الذي قال فيه: ساروا بنعشك مسرعين كأنما فصموا عرى التاريخ ثم تفرقوا، يعدل قصيدة المحجوب كلها)!

أما الشاعر الكبير محمد سعيد العباسي فقال:

مات الإمام الذي كنا نلوذ به ... في النائبات وكان المعقل الأشبا
يا هول ما نشر المذياع من خبر ... أشئم به من غراب بالنوى نعبا
تفديك يا عابد الرحمن أفئدة ... لم تقض منك على طول المدى
فالناس في مثل يوم الحشر إذ نشروا ... وهم يصيحون: واويلاه وا حربا
ولا ترى العين إلا كل ذي خطر ... يحف نعشك محزونا ومكتئبا
إن يدفنوك فلا والله ما دفنوا ... إلا المروءة والإحسان والأدبا

ومثلما رثاه شعراء الفصحى رثاه كذلك شعراء الدارجة. قال شاعر الحقيبة عبيد عبد الرحمن:

آويتنا ودنيتنا ... وناديتنا بأسمانا
ولميت شقة الفرقة ... القبيل قاسمانا
أيادي نعمتك في ... كل شيء مقاسمانا
بان في وجوهنا خيرها ... وشارة الشرف واسمانا
كنت رجانا يا مولانا ... كنت عزانا
في وجودك وجود ... ذاتنا وحياتنا مزانا

مـــــن بعـــــدك نفوســـــنا تســـــــربلت أحزانـــــــا
ومـــــن بعـــــدك عقولنـــــا تحيـــــر ت واتغيـــــــرت أوزانـــــــا

الإمام الصديق يستلم الراية

وجد الإمام الصديق نفسه في فوهة المدفع العسكري، إذ أنه جاهر بمعارضة الانقلاب منذ يومه الأول، واعتبره مؤامرة ضد الشعب السوداني وحرياته، ولكن في ملابساتها تستهدفه شخصياً وتستهدف الخط الوطني الذي كان ينادي به. ووجد بطلنا أن آماله بالسفر قد تبخرت وأن الوضع الذي لا يحسد عليه يحتم عليه البقاء بجانب والده منافحاً عن حريات بلاده.

وكان الصادق للصديق مثلما كان الصديق لأبيه، سنداً قوياً في كل ما يقوم به. إذ استقال كما قلنا من وزارة المالية وعمل مع والده في دائرة المهدي، كمدير للقسم الزراعي ثم القسم العقاري بالدائرة، وعضواً بمجلس الإدارة، وانتخب رئيساً لاتحاد منتجي القطن بالسودان.

ومن الطرائف التي يرويها السيد الصادق حول نظام الفريق إبراهيم عبود أنه: كتب *على بوابة القيادة العامة: (احكموا علينا بأعمالنا) ومررنا أمام القيادة العامة فقال المرحوم الشيخ الطيب السراج: حكمنا عليكم وكان رأي الشيخ الطيب الذي يكرره دائما أن الجاهل عدو نفسه!! (الصحيح أن يقال احكموا لنا بأعمالنا).*

كتاب العبادات

في يونيو ١٩٥٩م كان الصادق وراء طباعة كتاب العبادات للإمام المهدي الذي جمع فيه ما تفرق من توجيهات الإمام المهدي بشأن العبادات المختلفة، وقد سبقت إشارتنا للكتاب الذي صدر وفيه مقدمة من الإمام الصديق مختصرة يتحدث فيها عن ضرورة التمسك بالعبادات الجماعية والفردية، وتصدير أطول بقلم الحبيب الصادق، بعنوان (خطبة الكتاب).

وفي تلك الخطبة نجد أنه وضع البذرة للأفكار التي سوف يتعهدها بالتطوير حتى تصير أطروحات ناضجة يبز بها المفكرين.

مثلا، المعلوم أن الإمام الصادق المهدي ينادي اليوم بإشباع حاجات للإنسان: روحية ومادية ومعرفية وأخلاقية وعاطفية وجمالية وبيئية ورياضية وترفيهية بتكامل، ويقول إن الجدية تعني الإحاطة بها جميعاً. فاقرأوا له وهو يكتب يومها: *(حياة الإنسان متعددة النواحي، مختلفة الجوانب، كثيرة الألوان، فإن أغفلت جانباً أو تجاهلت لوناً عرضتها للزعزعة والاضطراب. إذا زعمت أن حياة الإنسان روحية خالصة، وقلت للناس لا تهتموا بالحياة المادية، وأمرتهم أن ينحصروا في رياضة الروح وما إليها، لظهر لك أن الإنسان إذا جاع يأكل أول ما يأكل دينه، وإن قلت حياة الإنسان مادية خالصة وأمرت الناس بالانقطاع للمادة وأسبابها لأثقلت حياتهم وصددتهم عنك نافرين فتعلم أن حياة الإنسان ليست بالخبز وحده، وأي الناس لا يتألم لمنظر الطعام إذا شبع؟)*

والحقيقة فقد استوقفتني تلك المقدمة طويلاً، وحَسَبت عمر السيد الصادق حينها فوجدته لم يبلغ الرابعة والعشرين، فدهشت من عمق التحليلات فيها منبية عن مشروع فكري مكتمل النضوج عجيب أن يصدر عن غض الشباب. وحينما نقلت للحبيب تلك الدهشة وسألته أنى لك حينها ذلكم الوعي، لم يجبني، ولكنه قال: *حينما فرغت من كتابتها رأيتُ أن أعرضها على عالم فاضل من علماء السودان أسأله عن مدى مناسبتها كخطبة للكتاب، فعرضتها على الشيخ محمد المبارك وهو أزهري وكان شيخ علماء السودان، فاطلع على الخطبة، وقال لي تعليقاً عليها: هذا هو البرنامج الاجتهادي للإمام الصادق! ولكني اعتبرته تعليقاً مضحكاً!*

صدق تقييم شيخ المبارك الذي كان مديراً لمعهد أم درمان العلمي، وكان عالماً مستنيراً مجتهداً له العديد من المؤلفات القيمة، فقد حوت تلك الخطبة على مجمع أبحر فكر الإمام الصادق الاجتهادي التي تفجرت لاحقاً.

لم يكن الصادق الشاب حينها، وقد بلورت أفكاره وظهرت شخصيته الآسرة والقريبة جداً من حالة جده الأكبر، الإمام المهدي عليه السلام، واعياً بطيبٍ بدا يفشو منه، تماما كالجد الذي كان يبحث عن صاحب الزمن ليعاونه. وإن كان بعض الناس من حوله بدا لهم، مثلما بدا لجده ولآخرين، أنه صاحب فكر ورايات، وأنه مرمى الباحث عن قيادة البلاد المستقبلية بحسب المستر توماس، يحمل على عاتقه عبء تلك القيادة في درب شائك وصعب مؤصلاً مسيرته من جذورها الحضارية ومستشرفاً العصر ومنجزاته الحميدة.

وقد افتتن به حتى بعض الأجانب ممن لاقوه في إنجلترا أيام دراسته هناك. ويروى أن والده الإمام الصديق كان يقيم مأدبة غداء في دار والده الإمام عبد الرحمن بودنوباوي بالجمع، وفي يوم من عام ١٩٦٠م حضر أحد المدعوين وسأل عن الصادق، فلما نودي به له سلّم عليه، قائلا: أنت الصادق إذن! لقد لاقيت مهندساً إنجليزياً قال لي لديكم شاب يسمى الصادق، لا أشك في أنه نبي! فضحك الحضور من خزعبلات النصراني الذي لا زال ينتظر نبياً، وقال السيد عبد الله الفاضل للصادق مازحاً: ما دام صار لك «حيران» في إنجلترا فاذهب بشّر بينهم! ونحن نتبرأ من حديث المهندس الذي ما علم أن حبيبنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو خاتم النبيين، وما من نبوة ولا رسالة بعد رسالته الخاتمة. ولكنا أوردنا القصة لأننا وجدنا فيها دلالة على مبلغ الأثر الذي كان الصادق يتركه في نفس البعض ممن يلاقونه، بسبب رؤيته الواضحة، وروحه الآسرة، وهمته في الحق.

توحيد الصف

أول ما قام به الإمام الصديق هو توحيد صف الحزب، فضم أولئك الذين ذهبوا وراء الانسلاخ الذي تبناه المصريون (حزب التحرير) وكانوا قد هزموا هزيمة شنيعة في انتخابات فبراير ١٩٥٨م.

ويروي دكتور الفاتح عبد السلام ذلك الحدث فبعد ذكره أن بعض أبناء أسرة المهدي، تحديداً من أسرة خليفته تفرغوا للحزب الجديد من وظائفهم الحكومية (محمد داؤد الخليفة وعبد الله الأمير إسماعيل) وأنهم هزموا في الانتخابات شر هزيمة، يقول: (وبعد وفاة السيد عبد الرحمن في ١٩٥٩ خلفه ابنه الأكبر الصديق إماماً. وفي مواجهة الطغمة العسكرية القاسية رفع الإمام الجديد راية المصالحة فاستجاب ابن الخليفة للنداء ورجع والتحق بحزب الأمة)[١]. أما ابن الخليفة المعني فهو السيد عمر خليفة المهدي الذي قاد الانشقاق المدعوم من الحكومة المصرية[٢].

***

(١) دكتور الفاتح عبد الله عبد السلام النزاعات في الأحزاب حزب الأمة نموذجا ترجمة الدكتور عبد الرحمن الغالي.

(٢) لتفاصيل الانشقاق انظر السابق.

تكوين الجبهة الوطنية المتحدة

كان الانقلاب قد حلّ الأحزاب وصادر دورها، وعلّق إصدار الصحف، وخرق الدستور مستناً السنة السيئة التي اتبعها من جاء بعده فدمروا بلادنا ومزقوها شذر مذر وتنذر الآن بالمزيد!

بعد الانقلاب بقليل بادر السيد الصديق المهدي بتكوين الجبهة الوطنية المتحدة لمعارضة نظام عبود، والجهاد من أجل إعادة الديمقراطية، وكانت برئاسته، واشترك فيها حزب الأمة والحزب الوطني الاتحادي برئاسة الأزهري، والجبهة المعادية للاستعمار، والإخوان المسلمون، وشخصيات سياسية شمالية كالسيد ميرغني حمزة الذي شذ عن حزبه وطائفته[1]، وأخرى جنوبية، وانتظم فيها من قيادة حزب الأمة عبد الله بك خليل.

وكان من أهم ملامح الاصطفاف السوداني خلف قيادة الصديق الزخم الذي صارت تجده المذكرات التي قدمها للسلطة العسكرية. وقد شارك الصادق الذي كان حينها قد تفرغ للعمل مع والده في صياغة تلك المذكرات.

المذكرة الأولى

مضى الحكم العسكري في إجراءاته القمعية. وفي يوم الأربعاء ٢١ أكتوبر ١٩٥٩م أرسل الإمام الصديق المهدي مذكرة للفريق عبود فيها المطالب التالية:

١/ أن تنتهي مهمة الجيش في مباشرة شئون الحكم مشكوراً علي ما أدى فيما يختص بالدفاع عن البلاد، متجنباً الدخول في شئون الحكم.

٢/ أن يتكون مجلس رأس دولة أعلى من خمسة أعضاء برئاسة، ويتولي هذا المجلس رئاسة الدولة والإشراف على شئون الحكم مؤقتاً.

٣/ أن تتألف حكومة من المدنيين لحمل أعباء الحكم في البلاد.

٤/ أن يوضع دستور للبلاد.

٥/ أن يتم انتخاب هيئة لإقرار الدستور وانتخاب رئيس الجمهورية في فترة وجيزة لا

(١) ينتمي السيد ميرغني لطائفة الختمية وحزب الشعب الديمقراطي- انظر تراجم الكتاب

تزيد عن الزمن الذي يتطلبه إعداد الدستور.

لم يستمع قادة الانقلاب لهذه المطالب، بل استنكرت الحكومة العسكرية تلك المذكرة وبدأت تواجه الإمام الصديق الذي أرسلها ومؤيديه بشتى أنواع الخصومة والعداء، فبدأ الصراع المنظم ما بين الإمام الصديق والمجلس الأعلى، وبدأ السودانيون يحددون مواقفهم في وضوح وجرأة.

فبادر السيد إسماعيل الأزهري بإرسال مذكرة في معنى مذكرة الإمام الصديق ومنذ تلك اللحظة بدأ التعاون ما بين الكتلتين. فصارت المذكرة بؤرة لتجمع رأي السودانيين.

الحكومة تتجه للتشدد

شهد العام ١٩٥٩م صراعاً عنيفاً من أجل السلطة داخل القوات المسلحة، وسلسلة متصلة من محاولات الانقلاب. وفي ١٧/ ١١/ ١٩٥٩م أعلن عبود في خطاب الاحتفال بمرور عام على انقلابه تكوين لجنة ذات اختصاصات غير محدودة برئاسة رئيس القضاء لتقديم توصيات عن أمثل الطرق التي تكفل اشتراك المواطنين في أداة الحكم. وفي أغسطس ١٩٥٩م عين لجنة لتنسيق العلاقات بين الحكومة المركزية والحكومة المحلية برئاسة السيد محمد أحمد أبو رنات رئيس القضاء حينها (وكان في نفس الوقت مستشاراً للنظام والرجل الثاني بعد الفريق عبود)، قدمت توصيات على ضوئها صدر قانون إدارة المديريات لسنة ١٩٦٠م، والذي أنشيء بمقتضاه نظام مجالس المديريات.

وفي أواخر عام ١٩٥٩م استطاع المجلس الأعلى أن يقضى على آخر محاولة انقلاب قادها المرحوم البكباشي علي حامد و قد كان الضباط الذين أعدموا على إثر تلك المحاولة أول ضحايا الحكم العسكري. اتصل الإمام الصديق بالفريق إبراهيم عبود طالباً عدم تنفيذ الإعدام على الضباط الخمسة حتى تصان البلاد من الأحقاد فتم تجاهل طلبه ونفذ الإعدام.

بعد هذه الإجراءات تضخمت قائمة السجناء من العسكريين، وهدأت أحوال الجيش، وظنت الحكومة الديكتاتورية أن حكمها قد استقر عسكرياً، وشرعت تحاول إيجاد سند لها من بعض زعماء الطوائف وبعض زعماء القبائل وتوجه الصحف لمهاجمة الأحزاب والتنديد بالنظام البرلماني.

وفي نفس هذه الفترة أعلن جميع عمال السكك الحديدية بالخرطوم الإضراب من العمل لأجل غير مسمى حتى تجاب مطالبهم ويفرج عن المعتقلين النقابيين الذين قدموا مذكرة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة في ١/ ١١/ ١٩٥٩م، ولكن الإضراب لم ينجح وقامت الحكومة بفصل ٢٨٨ من العمال.

وقام الطلبة بالإضراب عن الدراسة في ١٣/ ١١/ ١٩٥٩م تضامناً مع العمال وانتفاضة صغار الجيش.

وفي ٢٩/ ٣/ ١٩٦٠م صلى السيد إسماعيل الأزهري وجماهير الوطني الاتحادي صلاة عيد الفطر المبارك (١٣٧٩هـ) مع جماهير الأنصار، وكان لهذا اللقاء مغزى سياسي هام أزعج العسكريين وكان بداية لمقاومة جادة، وانضم إليهم قادة الحزب الشيوعي السوداني وجماهيره وكونوا معاً جبهة أحزاب المعارضة. وأخذوا يعقدون الاجتماع تلو الآخر على مسمع ومرأى من الحكومة، ويتدارسون فيما يمكن عمله للقضاء على النظام القائم[١].

وبينما الجبهة تناقش خطواتها التصعيدية أُعلنت زيارة الرئيس جمال عبد الناصر للسودان (١٥-٢٥ نوفمبر ١٩٦٠م) فكانت بمثابة هدنة أوقفت فيها المعارضة تحركاتها استعداداً لاستقبال ضيف البلاد.

وأراد قادة المعارضة انتهاز الفرصة واتفقوا على أن يدعو الإمام الصديق الرئيس العربي إلى حفل شعبي تكريماً له، ويظهرون في نفس الوقت قوتهم للحكومة العسكرية، إلا أن الحكومة فطنت لخطتهم ولم تسمح بذلك باديء الأمر، ولكن حينما سمحت الحكومة للسيد علي الميرغني المقرب إليها باستقبال ناصر «كان من غير المستساغ منع زعيم الأنصار»، وكان ذلك الاستقبال مناسبة لإظهار قوة المعارضة وتأييد الشعب لهم مما أحرج الحكومة أيما إحراج. (وهكذا احتفل قادة المعارضة بالرئيس العربي، وفي نفس الوقت اختبروا موقف الشعب منهم وأظهروا للحكومة التي شهد بعض وزرائها الاحتفال قوتهم وتأييد الشعب لهم).[٢]

كان الإحتفال بناصر وصحبه في بيت الإمام المهدي في مساء يوم ٢٤ نوفمبر ١٩٦٠م

(١) حاج موسى، سابق ص ٢٦٢

(٢) نفسه

وقد شهد الاحتفال كل قادة الشعب السوداني وحشد من جماهير السودان كان منقطع النظير من حيث ضخامته وانتظامه وحماسته[١].

ويروى أن عبد الناصر قال يومها للإمام الصديق: أنا أعرفك يا سيد صديق وكم لاقيتك لكنك ربما لا تتذكرني، فحينما كنت مقيما بالسودان بالأربعينات كنت آتي ضمن أفراد القوة المصرية بالسودان تلبية لدعوات والدك المتكررة لنا[٢].

المذكرة الثانية

بعد مغادرة ناصر دعا الإمام الصديق ممثلي الهيئات السياسية السودانية وأعيان البلاد السياسيين لاجتماع أسفر عن تقديم مذكرة في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠م، موجهة من قادة المعارضة لعبود وأعضاء مجلسه الأعلى، كررت المطالب الديمقراطية المتمثلة في رجوع الجيش لثكناته وتكوين حكومة انتقالية تجري انتخابات حرة تأتي بممثلي الشعب حكاماً، تحديداً:

(١) أن يتفرغ الجيش لمهمته الوطنية وهي حماية البلاد.

(٢) تتولى الحكم هيئة قومية انتقالية لتحقق الآتي:

أ- تمارس سلطات الحكومة في فترة الانتقال.

ب- تضع التخطيط السليم والأسس الواضحة للديمقراطية في السودان على ضوء تجارب الماضي.

ج- تضع قانون انتخابات عادل وتجري الانتخابات لإيجاد ممثلي الشعب الذين سيتولون الحكم في صورته النهائية ويضعون الدستور.

(٣) رفع حالة الطوارئ فوراً وكفالة حريات المواطنين، وضمان حرية الصحافة ليستطيع الشعب أن يعبر عن آرائه في حرية، ولتستطيع الحكومة القومية تحسس رغباته والتجاوب مع اتجاهاته.

لكنها وقعت كسابقاتها على آذان صماء!

---

(١) جهاد في سبيل الديمقراطية

(٢) محمد سعيد محمد الحسن، عبد الناصر والسودان، سابق

الطواف في كردفان

بعد ذلك أرسل الإمام الصديق وفوداً تعبوية لكردفان ودارفور. كان وفد دارفور بقيادة السيد أحمد المهدي، أما السيد الصادق فقد ذهب قائداً لوفد كردفان. وأعطيت الوفود تعليمات بأن تقيم في الأقاليم إلى أجل غير مسمى حتى ينجلي موقف الوطن.

قضى الصادق شهوراً في كردفان، وقد ذهب بمنشور توجيهي من الإمام الصديق المهدي ليُتلى على الأنصار يوضح لهم حقيقة الأوضاع، ويحثهم على التماسك حول العقيدة والموقف الوطني المطلوب.

وقد طاف بالإقليم وكان ينطلق في كل مرة من الأبيض عاصمة كردفان، فاتجه بداية لجنوب كردفان، ثم للغرب منطقة دار حمر، وقابل العديد من الوفود من شمال كردفان علاوة على أن الأبيض ذاتها التي اتخذها قاعدة انطلاق هي في منطقة شمال كردفان، وقد وجه بوضع برنامج لزيارة مركز أم روابة في الشمال، ولكن يبدو أنه تم استدعاءه قبل القيام بالرحلة التفصيلية في مراكز شمال كردفان.

كان المنشور التوجيهي الذي أخذت به الوفود وأذاعته على الناس موجهاً من الإمام الصديق إلى وكلائه وشيوخ الأنصار وشبابهم في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠م، وتم فيه سرد تطورات القضية الوطنية وتسلم الجيش للسلطة، وذكر المذكرة التي كتبها الإمام الصديق لرئيس وأعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة منادياً بالإصلاح، وأنهم تقبلوها بروح طيبة ووعدوا بتكوين لجنة للنظر في الأمر وأن الرئيس عبود ضمن ذلك في خطابه في ١٧ نوفمبر ١٩٥٩م، ولكن لم يحدث جديد فكانت المذكرة الأخرى في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠م وقعها مع الإمام الصديق ساسة يمثلون السواد الأعظم من الشعب السوداني احتوت على مطالبات بأن يتفرغ الجيش لمهمته الدفاعية، وتكوين حكومة قومية انتقالية، وترفع حالة الطوارئ وتكفل الحريات، وذكر المنشور أن الإمام ومن معه سوف يدفعون بالتي هي أحسن لتحقيق مصالح البلاد والوضع الكريم الذي يليق بالشعب السوداني وطالب المنشور بالتزام الصبر والهدوء (واعلموا أننا وإياكم في جانب الحق والله يتولى الصالحين فهو نعم المولى ونعم النصير)[1].

(١) نص المنشور وكافة مكاتبات الإمام الصديق المهدي في مواجهة النظام العسكري في كتاب جهاد في سبيل الديمقراطية

طاف السيد الصادق كردفان شمالاً وجنوباً وغرباً، واستمر طائفاً منذ ديسمبر ١٩٦٠م وحتى أبريل ١٩٦١م حينما استدعى الإمام الصديق الوفود للعودة.

بدأ السيد الصادق طوافه في جنوب كردفان فطاف قرى جبال النوبة ويقدر أن يكون ذلك في ديسمبر ٦٠ أو يناير ١٩٦١م.

ومن بين دفاتر السيد الصادق وجدت واحداً حول زيارته لجنوب كردفان (مركز الدلنج) ولكن تدوينه ليس كاملاً، وفي جانبه الآخر تدوين أكثر تفصيلاً للطواف على دار حمر (غرب كردفان) في الفترة من ٢ مارس ١٩٦١م (الموافق ١٥ رمضان ١٣٨٠هـ) وحتى ٢ أبريل ١٩٦١م. وتحوي الكراسة ملاحظاته حول القرى التي طاف بها وما تحتاجه، وتعليقاته على شخصيات وتصرفات بعض الزعماء والإداريين الذين قابلهم، والمناشط التي قاموا بها، وسوف نسعى بإذن الله للبحث عن الدفاتر الأخرى إذا وجدت لتنشر التعليقات مكتملة. وسنكتفي هنا بإيراد بعض المقتطفات.

الملاحظة الأساسية أنه في كل قرية أو حلة يمر بها كان يسجل ملاحظات عامة، ويركز في كل منطقة على وجود مدرسة أو عدمه. مثلاً كتب في دفتره (ملاحظات حول قرية بير منعم) أنه ليس فيها متعلمين فالمدرسة حديثة عهد، وحول قرية حجر، أنها ظلماء ليس فيها «فقرا» (أي شيوخ دين) وواجب أن يكون فيها عمل ديني، وهذا يحدث في كل قرية تقريباً.

كذلك كان يدون ملاحظاته على العطش وأثمان المياه، ومنها علمنا أن القرى كانت تعاني عطشاً شديداً وتشتري المياه من النهود لقاء ٦ أو سبعة أو عشرة قروش، وكانت تعد أثماناً باهظة، وهناك استثناءات قليلة لمناطق يوجد بها رهد (كمنطقة أبو جزيرة) أو دونكي (كمنطقة الدم حمد أو ودبندة)، وسجّل المناطق التي فيها شفخانات ويبدو أن وجودها كان نادراً.

وكان يقيم تنظيمات في كل قرية يمر بها أو يسجل المسئولين الموجودين: وكيل الإمام، سكرتير الشباب، ومقدم الفقرا[1]، ومقدم المتعلمين، ونوابهم، ويدون أسماءهم وعناوينهم وما يرجى منهم بحسب تقديره في العمل الدعوي أو الوطني. كما كان يدون

(١) الفقير في الأدب الأنصاري، هو الفكي الشائع أو الشيخ معلّم القرآن. وجمع الفقير فقرا ومقدمهم أي زعيمهم، وكان الإمام المهدي يؤنثها فقاير للنساء الدارسات للدين.

خاطرات ويناقش أفكاراً طرأت له أثناء الطواف.

ومن ذلك تدوين ملاحظات حول بعض المسئولين ككمندان بوليس كردفان (عبد الرازق عوض الكريم)، ومفتش الدلنج (عبد السميع غندور)، ومفتش النهود (محمد أبو بكر)، وملاحظ بوليس النهود (محمد أحمد مكي)، بينما ذكر أنه لم يقابل مفتش كادوقلي محمد حسن (ويقال إنه من الأخوان المسلمين).

زيارة مركز الدلنج

طاف الصادق في هذا المركز على عدد من القرى، وسوف نورد شذرات من ملاحظاته وهو طائف به.

دوّن السيد الصادق ملاحظات حول منطقة نبق تركز على العمل الدعوي، وقال حول إحدى قراها:

(تتبع لهذه المنطقة حلة عامرة بالأنصارية اسمها تيراب ووكيلها علوي علي محمد، ولهذه الحلة جامع ولكنها مظلمة وتحتاج لعمل تفقيه شديد، ويجب إرسال فقيه لها. هذا وبها رجل فقيه غير أنصاري، وكذلك بها ضال يدعى (ح. ج.) قائم بحركة «دساتير»)[1].

وفي قرية السليك صرف همه للاهتمام بقضية الوثائق المتداولة بين الأنصار ومدى موثوقيتها، فدون الملاحظة التالية: *(توجد منشورات عديدة قديمة من الإمام الراحل. عن أنه الرجل الذي يخرج نبي الله عيسى، وأن هناك بعض القبائل مغضوب عليها، وأرى أن أمثال هذه المنشورات ليست صحيحة. كذلك قرأ أحد الحاضرين منشورا للإمام المهدي ذكر فيه أن الراتب فريضة وذكر مناجاة بين المهدي وبين الله وهذا المنشور أيضاً ينطوي على معان خارجة، فبالنسبة لكل تلك المناشير التي تنسب إلى الإمام الراحل والإمام المهدي واجب إصدار نشرة معناها:*

أ) منشورات الإمام الراحل غير الصادرة بتحقيق مكتب شئون الأنصار لا تعتبر.

ب) المنشورات التي يتداولها الأنصار هي «وإيراد بيانها».)

(١) المقصود ممارسات الزار.

وأورد السيد الصادق خواطر موزعة في الرحلة نورد منها التالي (بتصرف):

- *هذه القبائل مع سلامة فطرتها وتعلقها العاطفي الشديد بالدين تعيش في انحلال خلقي فظيع. شراب الخمر بين النساء سائد والحديث عن الزنا كثير ويسير.*

- *إن موضوع الكفاح الديمقراطي وما يشبه ذلك من مبادئ لا يصلح لربط الجماعات الإقليمية، والسبيل لذلك الوضع الديني، وتقديم برنامج محدد، عندئذٍ يتخذ الموقف أقوى أوضاعه.*

- *توجد طبقات مختلفة من الحقيقة، فالشخص الجاهل الذي لا توضع له الحقيقة في الطبقة التي يمكنه إدراكها يكون خارج مجرى الحوادث. فإن القيادة التي تجند جميع الطاقات لهدف واحد يجب أن تشبكها جميعا بشوابك تلائمها حتى لا تنعزل من الأحداث. الملاحظ في المرور على الصفوف بالسلام على الرجال (والنساء خلفهم) يقول الرجال وهم يسلمون: رب اهدنا، رب افعل لنا كذا وكذا، والنساء يرددن معان مثل ذلك. ومع أن الحقيقة واحدة إلا أن لكل فئة فهمها لها. فالقيادة الحكيمة هي التي توضح الحقيقة الكبرى وتمد منها حبلاً يلائم كل فئة ليربطها. فما هي الحقيقة الكبرى التي عليها الأنصار؟ وما هي الروابط التي تربط بها الفئات الآتية:*

١. *المدينة وسكانها من علماء، مثقفين، أفندية، نساء..إلخ.*

٢. *الأقاليم وسكانها ومن على شاكلتهم.*

٣. *البادية وسكانها ومن على شاكلتهم.*

هذه الحقيقة نقتبسها إن شئنا من الدعوة الإسلامية وما فيها من مخاطبة لكافة الفئات بما يلائم انتشالها، وهذه حكمة القول بمخاطبة الناس على قدر عقولهم. ليس رأي محمود محمد طه في الفهم التطوري للإسلام صحيحاً، إنما الصحيح أن التطور مشمول أفقياً، وهذا الفهم أقوى من القول بالتناسخ.

إن استنباط الأسس والأنماط من الإسلام دائماً رائد صحيح لمعرفة أحوال البشر، ذلك أنه مهما اختلفت المحتويات التي يشتمل عليها المجتمع البشري فإن الإطار يلزم طابعاً ثابتاً، ومن أبصر بذلك الإطار من خالق الناس؟ إن الله الذي خلق الإنسان خلقه من عنصر جديد، عنصر حقيقة ليست خالصة بل جدلية، وروابطه الاجتماعية خاصة به.

المطلوب تفقيه الأنصار بأحكام الدين في أمثال السؤال التالي: بقرة المرفعين أضر بها وأخرج مصارينها ثم لحقها القوم وبها روح: ترفع الرأس وتخفضه فهل إذا حللت تؤكل؟ الواجب التوضيح وأيضاً موضوع القسم بالطلاق كأن يقول: علي الطلاق كذا وكذا، أو إذا فعلت يا فلان كذا وكذا زوجتي تحرم علي، فإذا فعل المقسوم من أجله ما الحيلة؟ وأيضاً موضوع الإخاء في الرضاعة. الناس يعيشون في أوهام عديدة ويجب إخراج منشور لمعالجتها.

- *ضوء على رحلة الإمام المهدي من قدير إلى الأبيض:*

أ) الأنصار بالمنطقة يحفظون هذه المعالم والأشجار التي قيّل فيها أو بات مميزة عندهم ولهم في ذلك قصص تروى.

ب) واجب تقدير وإشهار هذه المعالم. كان المبيت في الليونة من الجبال الستة في تبلدية، ثم قيّل وبات في التبلدية التي زرناها الآن وهي قرب حلة اسمها العفينات وسماها العسيلات، وهي بالقرب من منطقة دبيكر. ثم حط الرحال في البركة في عرديبة معروفة بالقرب من جعيبات.

زيارة دار حمر

وبحسب برنامج الزيارة المطبوع المرفق بالدفتر فقد كان القيام من الأبيض عاصمة الإقليم، باتجاه النهود حاضرة غرب كردفان مبرمجاً له في الساعة السابعة من صباح يوم ٢ مارس، وأول منشط مبرمج له هو الاحتفال مساء ٣ مارس (ليلة ١٧ رمضان) بيوم بدر وأبا.

كتب السيد الصادق:

دار حمر: النزول في النهود على الحاج إبراهيم الخليل. أقمنا ليلة ١٧ رمضان بتوفيق هائل. المفتش م. ب. رجل ضعيف من الهاربين من الجنوب من حلة خوجلي، ختمى. ملاحظ البوليس رجل طيب. نائب المفتش جنوبي اسمه اندرو. الهيئة الحاكمة كلها كهربت للابتعاد عنا، ولكن جاء الناظر وجاء بعض الشراتي للسلام! هذه الحكومة طائشة ولا تعرف ما يضرها وما يصلحها، إن الشعب معنا في تأييد كبير.

وروى عن مواقف شيخ الحلة (محمد نوباوي) وهو وكيل الإمام هناك، فكتب:

لقد قامت حكومة السبعة الطائشة بمحاولة جمع تأييدات من أفراد قبيلة حمر، وفشل المسعى، وأرسلوا ضابطاً ومعه عربتين جنود إلى الحلة، وقالوا لها أنتم عاصين، فقال لهم الناس ماذا فعلنا فقد أعطينا الضرائب وحشينا الشارع..إلخ؟ فقيل لهم لماذا لم تؤيدوا الحكومة كما أيد ناظركم؟ قالوا إننا لا نعتمد شيئاً لا يجينا بواسطة الإمام.. وأيضا محمد نوباوي تمنّع وقال إن أردتم شياختكم خذوها!!

وكتب عن بيوتات النظارة التالي:

ما هو مصير بيوتات النظارة؟ إنها الآن يترأسها رجال كبار في السن على الغالب، وبهم تغفيل كثير. وهذه البيوتات قد نهلت كثيراً من علوم هذه المدنية وتركزت فيها ثروة كبيرة عن طرق مشروعة وغير مشروعة، وأصبحت لذلك محط القوة الأدبية والاقتصادية في القبيلة فما هو مصيرها مع غباء زعمائها وتأييدهم دائماً للمواقف الآيلة للفناء؟

فهم –مثلاً– في تأييدهم لحكومة مثل حكومة عبود التي لا تقوم على أي أساس وتدل كل مقوماتها على فنائها المحتوم. فماذا يخاف زعيم عشيرة من مثل هذه الحكومة؟ وكيف سيحمي نفسه عندما يذهب أثرها قريباً؟ هل يا ترى وضعوا في أذهانهم هذه الأسئلة؟ والمعلوم المؤكد أنه لا بد من سياسة لمواجهة هذا الغباء.

وكتب في موضع آخر:

(عود إلى نظار العشائر. يجب أن توضع خطة محكمة لهدمهم هدماً مفيداً، حيث يستفاد من مكانة بيوتاتهم في الوضع الجديد، فلا يكون الهدم تخريبياً بل يكون بغرض رفع العناصر الطيبة الواعية من بيوتاتهم إلى مستوى القيادة المعاصرة.

إن القبلية بالمعنى المفهوم وبالنسبة للقبائل الكبيرة وهمٌ لا أساس له، ذلك إن أخذنا مثلا البديرية ثم الحوازمة ثم حمر لوجدنا أن الأجانب إذا جمعوا لزادوا على أسياد الاسم).

ودون الصادق في دفتره رأيه حول موقف ناظر البديرية السيد منعم منصور والذي أيّد حكومة عبود، وكيف أنه تحادث في النهود مع السيد عبد الرحمن عمر منتقداً له موقف الناظر من الحكومة وقال له *(إننا لا نستنكر التأييد الشكلي ولكن يهمنا التفاني في غير*

موضعه). و(يجب أن يجد منعم من يحلل له الموقف ليعرف ضعف هذه الحكومة وزوالها المحتوم. وحبذا لو كانت بيوتات الرئاسة نفسها تجد من يسوقها مع موجات التاريخ حتى لا تقف سداً فيحطمها التاريخ).

(وأظنه نقل كل ذلك الحديث لمنعم ولعبد القادر شقيق زوجته، وحضر عبد القادر مرتين فلم يجدني وحضر منعم صباح يوم ٦/٣/١٩٦١م وتحدثنا حديثاً طويلاً، وقال لي:

أ) إنكم تسمعون الكثير مما يشكك فينا.

ب) إن تأييدنا للحكومة سببه الضغط وإننا موظفون.

ج) إن العمدة أبو رنات هو الذي أملى علينا ودفع بنا في سبيل المعرض.

د) الجلابة وجودهم لا يريح من حيث قيامهم بالمقالب وجرنا في مثل مواقف التأييد التي حدثت.

ه) عند ذهابي الخرطوم قبل مقابلة عبود خابرت الإمام ولكن مهما فاتحته لم يحدثني فعلمت أنه منقبض.

و) إننا مهما كان الأمر لا «نبراكم جاي ولا جاي» ومع إني إدريسي إلا أني خابرت الإمام الراحل بذلك، فقال هذا بوجهة لوحده، وتستمر العلاقات كما هي فأنا لا أرى أعظم منكم حتى أحيد عن ذلك. وأما موقفي مع هذه الحكومة فالذي في القلب في القلب. أليست هذه الحكومة عديمة السياسة فهي معادية «سيدي» ومعادية الاتحاديين واستعدت الآن الإداريين؟

تحدثت مع الحكومة كثيراً عن هذا المشروع الجديد، ولكن الحاكم العسكري لكردفان مهما أثيره معه أجده صامتاً ولعل السبب في ذلك أنه يرى أبا رنات مقرب لدى الحكومة فلا يريد أن يعترض سبيله.

ثم شكى بأن البوليس عندما جاءه خبر شرع فوراً في الاعتقالات والتحقيقات..إلخ، وليست عنده سياسة. وشكى من القاضي المقيم فقال إن موقفه من أعجب ما يكون: صاحب الجريمة البينة يطلقه ظلماً، ولسنا نعرف ماذا وراءه؟

أما المجلس فله جمع ماله والسلام.

فكيف يكون الأمر بين المجلس والقاضي والبوليس مع فقدان المفتش؟

فقلت له قصة أخطاء هذه الحكومة وفسادها وضلالها، وإن الإمام لم يخرج من كونه طلب معها المفاهمة، وإن من التكبر والسفه أن تعرض عن المفاهمة حول مصير البلاد كأنما البلاد سجلت باسمها! وإننا نرى ضرورة وعيكم ورشدكم وانتباهكم للأمور حتى لا يطيش صوابكم، فأنتم زعماء في أهلكم ولا يصح لكم الإهمال في الأمور المهمة. وإن هذه الحكومة لا شك زايلة فماذا يكون موقفكم من الناس؟

وتحدثنا كثيراً في اتفاق تام حول الأمر. وتساءل لماذا لم أنزل معه ودعاني، والواضح أنه يريد أن يؤكد أن ولاءه ثابت، وأنه تخوف من الموقف، وأنه لا يوجد سبب لتأييده هذه الحكومة كما هو معلوم. فشكرته على شعوره وتعجبت من الحكومة الطائشة وتلغرافاتها الفارغة إذ قال لي إنني أرسل جواب شخصي فأجده مذاعاً بصفته برقية! وختم قائلاً إننا معكم إذا جد الجد).

وجاء في البرنامج المطبوع أنه يوم ٧/ ٣ قيام من النهود إلى جبارة وجبريل والمبيت بغلة برة.

وكتب السيد الصادق في ذلك اليوم التالي:

(قيام يوم ٧/ ٣/ ١٩٦١ م: مررنا بحلة متبر، شيخها حمّاد متبر. وقصته أنه طُلب منه أثناء معرض عبود أن يؤيد بمن في حلته فقال إن أمر التأييد هذا اختياري وأنا أؤدي ما عليّ من واجبات الحكومة فلا داعي لشيء آخر وفي أمر التأييدات عندنا «شارة» إرشاد واجب نعرف اتجاهه.

فما كان من الحاكم العسكري إلا أن أرسل لهم ضابطا و٣٩ عسكرياً وقالوا لهم أنتم عصيتم فقالوا لا إننا نقوم بعمل الحكومة ومسألة التأييدات هذه اختيارية. وكان إرسال العسكر لهم قبل المعرض، حوالي ٣/ ٢/ ١٩٦١ م ورجعت القوة بلا جدوى.

هذه من الأساليب الغبية التي أخذ يستعملها أمثال العمدة أبو رنات من المنافقين الذين يجدون الحكومة العليا فارغة وراعنة في الفراغ فيتهورون ويرتكبون أمثال هذه الحماقات التي تؤدي إلى نتيجتين: تعلم الشعب الصلابة، وتعجل بزوال هذه الحكومة).

وفي مكان آخر يكتب:

(قبيل مغادرة النهود قابلت المفتش. تحدث حول عسكرية الأنصار وأقنعته بعدمها. حديثه به تملق وعدم تركيز وسريع الاقتناع وكأن كل الأشياء عليه غريبة!! إنني استغربت كيف يكون أمثال هذا حكام إداريين وعسكريين لمركز في سعة مركز النهود؟)

وكتب في ٩/ ٣/ ١٩٦١م التالي:

١. *سبق أن تحدثت عن درجات الحقيقة ووجوب وصولها إلى الناس حسب عقولهم. وأريد أن أضيف ظاهرة جديدة، وهي أن الناس الذين يفدون إلينا جماعات غفيرة من حلالهم لا يفدون عن معرفة لما نحن فيه، بل قد لا يكونون أصحاب غرض في معرفة ما نقول وما نوجه به، والتنظيمات التي نحن بصددها. فهم يقصدون الزوارة والبركة، ونحن نقصد التوجيه والإرشاد والتنظيم، فلا سبيل إلى ذلك إلا باستغلال العلاقة التي يقصدونها هم للأغراض العليا التي نود جمعهم حولها. لذا فبعد تحديد الأهداف واجب معرفة أن لكل مجموعة علاقة تساق بها وتأبى أن تساق بخلافها. وهذه العلاقات: العاطفية أو العقلية أو الروحية، واجب فهم ذلك وتخطيط السودان على أساس بيان تواجد تلك العلاقات في فئاته المختلفة.*

٢. *واجب كتابة بحث بعنوان حكم السودان، وذلك لبيان العناصر والعوامل التي ترتبط بها فئات السودانيين المختلفة، والاستعانة في ذلك بعلم التاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس.*

٣. *خدمات المهدية للسودان:*

أ- *توحيد الصفوف حول هدف موحد.*

ب- *خلق قيادة واحدة وإمامة فعالة.*

ج- *إيجابية الدين.*

د- *سيادة الوطن وذلك بالنظر للتحرير من الأجانب.*

ه- *وأيضا، القبائل العربية لا يمكن أن تتحمس لأهداف كبرى عن طريق عقلي إلا بعد مجهود ثقافي، وهي قبائل تحمل خامات الحضارة الإسلامية والعربية فلا يمكن تفجير طاقاتها إلا عن طريق المستوى الذي هي فيه حالياً. هذا كما أن القبلية أكبر عائق*

للسعي نحو هدف كبير، فلا دواء لها سوى الولاية الروحية التي تشفي الناس من آلامها وانقساماتها، وهذا أيضاً كتراث المهدية.

وكتب في موضع آخر بالدفتر في نفس الموضوع:

لوجود عوامل قبلية وطائفية وإقليمية في السودان ينعدم وجود ولاء مشترك، هذا ولا ختلاف الناس في تقييم تاريخ البلاد يضيف ذلك إلى عوامل التباين، فإذا جمعنا تلك العوامل اتضحت لنا صعوبة حكم السودان، ولذا فالواجب كتابة نظرية متكاملة تتناول كل تلك العوامل وتدرس حكم السودان علمياً، علنا نجد بين ثنايا تلك الدراسة أضواء نهتدي بها فيما يتعلق بحكم بلادنا.

****

لم يكن صاحبنا يظن أنه سوف يوضع بعد خمس سنين أمام هذه المهمة الصعبة، وكان يدوّن ملاحظاته بهدف إعطاء تغذية راجعة أمام والده الذي كان يقود دفة المعارضة، ويجتهد في بحث سبل توحيد كلمة السودانيين حول إزالة حكم العسكر وإقامة حكم مسترشد بأخطاء الماضي لئلا يكررها.

والحقيقة فإن أطروحات حكم السودان السائدة كانت أغلبها تدور ليس حول التوفيق بين هذه المكونات المستقطبة، بل حول إقصاء طرف أو أطراف من المعادلة.

وقد حاول الصادق جهده مثلما سوف نرى، أن يكون الحكم بعيداً عن الاستقطاب حريصاً على التوافق على حد أدنى، وهو الاتجاه الذي رماه كثيرون بالتردد.

المتردد شخص لم يحزم أمره ولم يحدد رأيه. وللصادق مقدرة عجيبة على تحديد الرؤى بجلاء في كل مرة يجابه بأي موقف، لكنه حرص دائماً على تجنب الاستقطاب.

ولنعد لغرب كردفان قبل أكثر من نصف قرن من اليوم.

دوّن الصادق أثناء زيارته لمنطقة «عيال بخيت» التالي:

في حلة كرُبلا بمنطقة عيال بخيت تقدم لي ابن الوكيل حامد سليمان واسمه عيسى حامد بأنه وهب ابنه وعمره ٧ سنوات (الآن) للإمام الصديق، واسمه محمد الصادق عيسى، فقلت له يدخله فوراً في المدرسة (في الخوي) وبعد إكمال تعليمه هنا يحضر إلينا إن شاء الله.

تفكك أجهزة الحكم واضح والظلم والعدوان من ناحية المسئولين:

أ- بوليس أم حيطان يعتقل الناس بكيفه وقد أمر علي الجقر ألا يبني جامعاً.

ب- عقوبة مك جلد وعبد الحميد لا ستقبالي.

ج- موقف جماعة بارا وأم روابة.

د- الحلة التي أرسلوا لها عساكر الجيش.

ه- تهديد حسن إبراهيم بالإعدام لحيازة المذكرة.

و- تكتيب الجماعة في النهود تعهداً بالأمن. كل ذلك بغرضين: التشكيك في مقاصدنا وعرقلة نشاطنا.

ز- القبض على العربة بعدم الرخصة والرد الخاطئ.

***

ولدى زيارته لقرية غبيش دوّن ككل قرية أسماء وعناوين سكرتير الشباب ونائبه، ومقدم المتعلمين، ومقدم الفقرا ونائبه، ووكيل المنطقة ودوّن أن المنطقة يوجد بها دونكي ومدرسة أولية وشفخانة وسوق كبيرة.

وذكر أن نائب مقدم الفقرا هو أبو إبراهيم عبد المحمود وكتب عنه: *(هذا شاب عامل عارف حافظ واجب الاعتماد عليه. واجب عناية به وإرسال تفسير مصحف له وأيضاً إحياء علوم الدين.)*

وتشيء الأقدار أن يكون ولد هذا الشاب الذي أعجبه، الأمير عبد المحمود أبو إبراهيم، أحد الشباب الذي سوف يتحلّق حوله بعد ثلاثة عقود ويكون ذراعه الأيمن في العمل الأنصاري، فهو الآن الأمين العام لهيئة شئون الأنصار!

وكتب بعد زيارة غبيش التالي:

أضواء على مبدأ الأنصار:

(لا شك أن كل مبدأ لا يتجدد يفنى. وكل مبدأ مهما كانت نواحي العظمة فيه ينطوي على تناقض في جوهره، وذلك هو السر في أن الأحوال لا تدوم على شيء بل تتغير.

الأنصارية في وضعها المعاصر:

١- لا مذهبية ولا تطرق ولا تشيع. إنما يعتمد مصدران الكتاب والسنة ويرعى سائر الناس إمام يجدد ويجتهد ويعمل بالشورى.

٢- مجموعة الأنصار تعتمد على تلك العقيدة وقد وثقت بينها بخلاف العقيدة عُرى التاريخ.

٣- الأنصار جماعة منتظمة مؤمنة بذلك المبدأ مربوطة بذلك التاريخ مجندة لأعمال الخير في كافة أوجهها:

الدينية: كعمارة المساجد- الخلاوى- الأمر بالحلال والنهي عن الحرام.

الاجتماعية: كمحاربة غلاء المهور والنواح على الموتى والحِد.

الاقتصادية: كتشييد الجمعيات التعاونية والشركات والمشاريع..الخ.

الوطنية: كالدعوة الاستقلالية والدعوة إلى أن يكون الحكم دائماً مدنياً والجيش يكون دائماً في ثكناته ونظام الحكم يكون قائماً على مبدأ من الديمقراطية موضوعاً على أساس يلائم حالة السودان وأوضاعه.

ما يجب كتابته:

١) حكم السودان: كتاب جامع للمؤثرات على الحكم في السودان.

٢) تعمير السودان: كتاب جامع للعوامل والاتجاهات التي تعمر السودان.

٣) تاريخ السودان: الطرق والقبائل والسلطنات وحكم الأجانب..إلخ.

وفي يوم ٣١/ ٣/ ١٩٦١م كتب خواطر نقتبس منها:

١. القرى السودانية في الأقاليم ليست بها أية خطة لتنظيم حياتها سكنياً ولا صحياً ولا معاشياً ولا خلقياً ولا دينياً ولا من أية ناحية من النواحي. والواجب وضع خطة متكاملة للقرية النموذجية.

٢. التعليم الأولي بآفاقه الحالية والتشريد للعيال الذي يحدث نتيجة لعدم اتساقه مصدر فوضى وبذار شديد. الواجب وضع سياسة تعليمية تحدد نسبة التعليم الأكاديمي

وتوزع الطلبة على المعاهد الفنية وخلافها حسب حاجة البلاد، وأن يسري ذلك إجبارياً.

❊❊❊

هذه الرحلة ومدوناتها مهمة للغاية برأينا في تتبع رؤى السيد الصادق، وقد كان شاباً في الخامسة والعشرين، حديث الزواج إذ مضى على زواجه في مارس ١٩٦٠م أقل من عام، فلم يكن له أطفال بعد. وقد شكل اختلاطه بالمسئولين الحكوميين والزعماء التقليديين وبالناس العاديين في الإقليم مادة للتفكر في قضايا كبرى تتعلق بالفقه والحكم والاجتماع، والتعليم، وغيرها من الخدمات المطلوبة في الأقاليم كمحاربة العطش.

وسنرى صدى هذه الرحلة في تركيزه حينما حكم على عدم الانفصام بين الحكام في العاصمة وبين الأقاليم، وضرورة الطواف عليها ومعرفة مطالبها، ثم مناداته المتكررة بمراجعة التعليم بطريقة تزيد من نسبة التعليم الفني حسب حاجة البلاد وتقلص التعليم الأكاديمي.

وقد ولدت بكر الصادق مباشرة بعد عودته من رحلة كردفان، في أبريل ١٩٦١م، فسماها أم سلمة تيمنا بجدته العالمة الصالحة التي قيل إن الإمام المهدي قال عنها: أنا في النساء أم سلمة.

وسوف نترك متابعة يوميات أبو أم سلمة الآن، لنصف من جديد المشهد العام.

خطاب الاستقلال ١٩٦١م

نظمت جبهة المعارضة التي يقودها الإمام الصديق المهدي احتفالاً ضخماً باستقلال السودان في بيت المهدي في ١/ ١/ ١٩٦١م، حضره حشد كبير زاد من تأكيد وحدة المعارضة وشعبيتها، وخاطب الاحتفال الإمام الصديق وأشار في نهاية خطابه إلى تقديم القوى السياسية لمذكرة للمجلس الأعلى للقوات المسلحة في ٢٩ نوفمبر ١٩٦٠، وعدد مطالب المذكرة الواردة في نهايتها ثم قال: (لا تزال هذه المذكرة الأخيرة بين يدي المسئولين لم يقرروا فيها بعد. ولم يردوا على ما جاء فيها ولا يزال أملنا كبيراً أن يتجاوبوا مع الروح الوطني التي أملتها. إن إجماع السودانيين الذي حقق بالأمس الجلاء وحقق الإستقلال ورفع علم السودان عالياً خفاقاً، هو نفس الإجماع الذي يتمثل في حشدكم هذا، وهو الذي سيحقق ما تصبو إليه هذه الأمة من عزة وكرامة، ونظرة واحدة إلى

التاريخ ترينا أن إرادة الشعوب لا تقهر، وتصميمها غالب ومشيئتها لا ترد. إننا حينما تقدمنا بمطالبنا لم نكن نرمي إلى الحكم أو نهدف إلى سلطان ولكنا نؤمن بأن أفضل أنواع الحكم هو الذي يشارك فيه المواطن بنصيب، سواء أكان عاملاً أو زارعاً أو تاجراً لأن الوطن يهمهم جميعاً وهو حق مشاع للكل يبذلون فيه بقدر ما آتاهم الله من ملكات وقوى واستعداد. وهو دائماً وأبداً في مصلحة وخدمة الشعب)[1].

أبقى خطاب الاستقلال على جذوة المقاومة متقدة، وأعلى من روح المعارضة المعنوية بالتفاف جماهير متزايدة حولها، ووضع سابقة لكيف يكون (خطاب الاستقلال) وهو ما افتقده كيان المعارضة بغياب الصديق الأسيف في أكتوبر من نفس العام، وهو ما سنتابعه تفصيلاً.

تفاوض ثم مواجهة

كل التحركات والاتصالات والوفود ومناشطها والخطب المنبرية أزعجت الحكومة فنحت للتفاوض مع الإمام الصديق قائد المعارضة الذي رحب بالحوار بشرط أن تكون المفاوضات رسمية ويكون حاضروها من الحكومة مفوضين للوصول لاتفاق.

عقدت ثلاث جلسات مطولة، الأولى في يوم الجمعة ١٧ فبراير ١٩٦١ (الموافق الأول من رمضان ١٣٨٠هـ)، والأخيرة في يوم الأحد ١٢ مارس ١٩٦١م، ولكنهم ركنوا بعدها لرجع صدى إعلامهم المضلل، وصرحوا لمراسل جريدة الديلي تلغراف بأن ٨٥٪ من الشعب السوداني يؤيد حكومتهم. المراسل الذي تساءل عن صحة هذا الادعاء قال له الإمام الصديق: إن كانت هذه المقولة صحيحة فلماذا تحجم الحكومة عن مسألة إجراء انتخابات عامة؟ وأضاف: إنني أستطيع إشعال حرب تحريرية في السودان ولا يمنعني من ذلك إلا الإشفاق على البلاد من الخراب.

بعد ذلك اتجهت الحكومة للبطش بالأنصار، فهمت باعتقال موفدي الإمام (السيدين الصادق وأحمد المهدي) للعزاء في الأقاليم، وأبرقهم الإمام الصديق مستنكراً: (يؤسفني أن أضطر لأحتج لديكم على الضغط والعنت الذي تلقاه مجموعة الأنصار وحدها فإنهم منعوا مثلاً من رفع أعلامهم التقليدية في دارفور وحددت إقامة السادة أبناء

(١) جهاد في سبيل الديمقراطية

المهدي أحمد والصادق بغير حق، وقد أوفدا مني لمديريتي كردفان ودارفور في زيارات تقليدية ومهام دينية اجتماعية تختص بالأنصار وحدهم في الغرب وإن في هذا ما فيه من التعدي على الحريات الشخصية والمقدسات والعقائد الدينية والعلاقات والمساواة الاجتماعية، حتى لقد وصل الأمر أن تعتبر التعزية في الفقيدين الناظر عبد القادر هباني والسيد علي أبو سن خروجاً على القانون). مذكرا بأن الدكتاتورية كنظام حكم لا تناسب شعبنا وضرورة الاستجابة لمطالب الشعب.

وإثر حادثة تعذيب محام في الأبيض بشكل بشع في يونيو ١٩٦١م، عقدت الجبهة اجتماعاً طارئاً في منزل الإمام الصديق المهدي حضره السادة عبد الله خليل، وعبد الله نقد الله، ومحمد أحمد محجوب، وعبد الله ميرغني، وأمين التوم عن حزب الأمة، وإسماعيل الأزهري، ومبارك زروق، ومحمد أحمد المرضي، وإبراهيم جبريل عن الحزب الوطني الاتحادي، وعبد الخالق محجوب، وأحمد سليمان عن الحزب الشيوعي، والسيد ميرغني حمزة وآخرون، وأرسلت الجبهة تلغرافاً نارياً في يوليو ١٩٦١م يقول (إن كل ضمير حي ليثور من أعماقه لهذه الأعمال الوحشية التي لن يسكت عليها الشعب الذي اصطكت مسامعه واهتز وجدانه لهذه الأنباء، وهو قادر لأن يضع حداً لهذا العهد البغيض الذي قام على إرادة حفنة صغيرة تدفعها الضغائن وتحركها الأحقاد، ونحن بوصفنا ممثلين لهذا الشعب ننذركم بأننا سنكشف كل ما يدور للرأي العام العالمي والمحلي ونحملكم قضية هذه الأعمال التي أرجعتم بها البلاد إلى عهود الظلام والبدائية المتوحشة).

فاعتقل العسكريون كل الزعماء المشاركين في الاجتماع الذي صاغ المذكرة، ولم يستثن إلا الإمام الصديق والسيد ميرغني حمزة ويقول البعض إن ذلك كان بطلب من السيد علي الميرغني الذي تربطه بعبود (ختمي الجذور) علاقة وطيدة.

ومن طرائف أو عجائب ذلك الزمان اعتقال قطب فريق المريخ الكروي الشهير عبد الرحمن شاخور إذ تم اعتقاله عن طريق الخطأ. وكان شاخور تاجر ذرة (عيش) مشهور وبما أنه أنصاري ومن ودنوباوي كان الإمام الصديق يكلفه ببيع إنتاج مزارع الدائرة من الذرة ويتحدث معه بالهاتف كثيراً حول الأموال المستلمة والموردة للبنك، وظنت حكومة عبود بعد مراقبة هاتف الإمام الصديق أن شاخور يمول المعارضة فاعتقل مع الزعماء المذكورين في جوبا، وروى حفيده أنه عندما اعتقل بواسطة الكومر والبوليس

من منزله كان منزعجاً جداً، وبعده ذهبوا لمنزل السيد عبد الله خليل فوجدوه في كامل هيئته و(محضر شنطة «هاندباك»، قال، زي الماشي تمرين كورة)! و في المعتقل قال له السيد الأزهري يا شاخور انت ما عندك ذنب ولكن طالما جيت معانا تناضل معانا علشان نقلب الحكومة، هو طبعا باله في المريخ قال ليه نقلبها: باكورد؟ فعلم الأزهري أن فكره كروي وبعيد عن السياسة![1]

الشاهد، أرسل العساكر في ١١/ ٧/ ١٩٦١م (لفت نظر) للإمام الصديق لكيلا يقوم (بما يخالف القانون مستقبلاً) مع هجمة إعلامية قوية على (الحزبية) وتضييق على الأنصار وتجمعاتهم.

ورد عليهم الإمام الصديق في نفس اليوم (١١/ ٧): (إننا لا نقبل أي تعدٍ على كيان الأنصار بمفهوماته وشعائره المعروفة. إن الجيش الثنائي الذي انبرى لكيان الأنصار بقوته وجبروته فأعمل فيه الضرب والهدم والتحريق ما لبث أن وجد أشلاء ذلك الكيان تتجمع مستمدة قوتها من عقيدتها الثورية التي تنطح كل عائق، فرأى رجال الحكم الثنائي نشأة الكيان الشهيد مرة أخرى بقيادة الإمام عبد الرحمن الذي دفع بالحكمة والتي هي أحسن حتى أصبحت تلك القوة المعنوية الكامنة سبب الدفع نحو استقلال البلاد والذود عنه. إنني لا أذكر هذا للمفاخرة وإنما أذكره للتأسف على الظروف التي جعلت حكماً وطنياً يعالج الأمور بأساليب الجيش الثنائي، إن نشاط الأنصار وحريتهم لأداء شعائرهم الدينية حقوق وليست منح وأنا ومن معي أمناؤها وحراسها بالمال والنفس والولد). ورجاهم أن ينظروا في عواقب أعمالهم ويعدلوا عنها.

سكتت الحكومة على هذا الخطاب وتحفظت في التعرض للأنصار. في تلك الظروف كتب الإمام الصديق للأنصار منشورا موجهاً يؤكد أن العنت الذي لاقاه الأنصار على يدي المحتل لم يفلح في اجتثاثهم، وأن العنت الذي يلاقونه اليوم لن يفت من عضدهم. ويوصيهم بالحفاظ على العقيدة والراتب وتنظيم شباب الأنصار.

رد المعارضة

جمع الإمام الصديق مجلسه وأطلعه على التطورات، وتقرر أن تتم مناشدة التجار

(١) أحمد دولة ظرفاء ودنوباوي قصص وحكاوي-٥- المرحوم الحاج عبد الرحمن شاخور مقال منشور بصحيفة الصحافة

والهيئات لكي تضرب تمهيداً للقيام بعمل جماعي، وأن يتحاشى الأنصار العمل منفردين.

كما سرب خطابات سرية للمعتقلين بجوبا مفادها الآتي: إن الجبهة الوطنية قد أعدت عدتها كاملة لمواجهة الموقف، وستبدأ فوراً بطلب لقاء مع المجلس العسكري تطالبه فيه بالتنحي الفوري عن السلطة وتسليمها للشعب، وفي حالة الرفض فإن الثورة الشعبية قد أعد لها إعداداً كاملاً، ولن تقدر حكومة العسكريين على مواجهتها لأكثر من أيام قليلة. وطالبتهم الرسالة بدراسة مفصلة لوضع انتقالي يعقب حكومة العساكر ويعد لقيام حكم ديمقراطي دائم وبذل أقصى الجهد لاتفاق كل المعتقلين على الخطة المقترحة.[1]

ولكن الدعوة للإضراب لم تنجح إلا في حيز ضيق كما قامت مظاهرات قليلة تحتج على صنيع الحكومة وهذا الموقف لم يكف للتمهيد لعمل إجماعي كبير.

أحداث المولد ٢١ أغسطس ١٩٦١م

يبدو أن حكومة العسكرتارية رأت أن اجتثاث المعارضة لن يتم بدون مواجهة الأنصار وقطع دابرهم. فاستهدفتهم في الاحتفال بالمولد النبوي للعام الهجري ١٣٨١هـ، وكانت لهم خيمتهم المخصصة داخل ميدان مسجد الخليفة أسوة ببقية الطرق والتنظيمات الدينية. فوضعت خطة لإحاطة قوات الشرطة المسلحة بالأنصار أثناء تجمعهم في مولد الرسول عليه الصلاة والسلام.

وحالما طوقت الشرطة الجمع، أنذرته بالتفرق ولكن لم تمهله لحظة بل شرعت تصب عليهم وابل الرصاص. فما لاذ الأنصار بالفرار بل واجهوا الرصاص ببسالة وانقضوا على البوليس بما صادفوا من الأخشاب وقواعد المقاعد والسكاكين وقتلوا منهم ثمانية واستشهد من الأنصار اثنا عشر رجلاً وجرح من الطرفين عدد كبير. ثبت الأنصار غير مبالين بعدوهم الذي فاقهم نظاماً وسلاحاً فاجبروه على الهرب تاركاً لهم الميدان وتاركاً وراءه ضحاياه وعدداً من الأسلحة النارية فستر الأنصار الضحايا وجمعوا السلاح وسلموه لقيادتهم.

(١)(أمين التوم، ص ١٩٧م). وكان من المعتقلين في جوبا.

شوهد الإمام الصديق في تلك اللحظة وقد هب للمكان وهو يحاول إنقاذ من يمكن إنقاذه من ضحايا الرصاص الغادر، وكان الألم يعتصره ويشعر بأن دماء هؤلاء الضحايا معلقة في عنقه.

شهداء المولد هم الأحباب:

١. حامد محمد أبو عكاز. أم درمان.
٢. آدم يحي. الجزيرة أبا.
٣. الجيلي الشيخ بلال. أم درمان.
٤. محمد أحمد مهاجر. أم درمان.
٥. فضل علي أحمد. سنجة.
٦. أحمد آدم. أم درمان.
٧. عبدالرحمن علي. الحوري.
٨. حامد حماد دارفور.
٩. أبكر آدم عثمان. الحصيرة.
١٠. جبريل محمد آدم. الجزيرة أبا.
١١. محمد عمر أحمد. أم درمان.
١٢. آدم حماد. الجزيرة أبا.

الإمام الصديق الذي كانت طعنة فؤاده كجمرة متقدة أسكت الغضب وأصدر بياناً يؤكد فيه أنهم ماضون للتقاضي في الجريمة: (نشكر الشعب السوداني أجمع لتضامنه معنا في المحنة وعزائه لنا في المصيبة. وإننا نتهم من أمر بتلك المجزرة بالقتل العمد ولدينا الشهود والبينات)..(أيها الأحباب كفكفوا دموعكم وضمضموا جراحكم اصبروا وصابروا وأعلموا أن الظلم زاهق وأن العدل لا شك سائد). وأي قتل عمد! في ساحة مسجد، لعزل يحتلفون بميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم!

كان الأنصار مجتمعين ببيت المهدي طيلة تلك الأيام، وروى العم الحبيب فضل

النور أن السيد الصادق أعطاه في اليوم التالي للتشييع قصيدة تلاها عليهم ولكنه لا يعرف شاعرها الذي سلمها واختفى بسرعة، وقد حفظ الحبيب فضل القصيدة بمجرد سماعها ولا يزال يحفظها عن ظهر قلب حيث دونتها منه مؤخراً، وعنوانها (إثنا عشر):

إثنا عشر من خير ما لحظته عين المعجب

إثنـــــــا عشر عقد تألق يوم ميلاد النبي

إثنا عشر قبسٌ توهّج في الظلام الغيهب

وجثا على قبر الإمام لدى الضريح الطيب

***

إثنا عشر باعوا النفوس هنـــاك للشرف الرفيع

أنفوا الشكيم على الهوان وما استجابوا للخنوع

أخذوا علـــــى غدر فألقوا فيه كالطود المنيع

ماتوا ليجني الشعب في أعقابهم زهر الربيع

***

هم فتية يـــــــــا صاحب الميلاد لم يتأثموا

حفلوا بذكـــــــراك الشريفة والضحايا جُثّم

وعلى الرصـــــاص المنتشي شاديهمُ يترنم

وبرغم طـــلاب الأذى صلوا عليك وسلموا

***

يا ما أحيـــلاهم وقد نزفوا على الأكفان دم

يا ما أحـــيلاهم على الأعناق لفوا بالعلم

يا ما أحيلاهم لدى التكبير يرمي بالحمم

يحكـــــــون أنا قادرون وأننا لن ننهزم

***

هلا رأت عيـــــــناك ما أمّلته يوم المصاب

هلا رأيت البقعة الفيحـــاء جاشت كالعباب

مزدانة قد لفها التاريـــــــخ في أبهى ثياب

نشوى تزغرد للضحايا الخالدين من الشباب

***

أو ما رأيت مواكب الأنصار ترعد في الأصيل

قد أحفظتهم مهجة باتـــــــت بلا ذنب تسيل

متأججين حماسة كشحت على الدرب الطويل

لله ما يلقونه في الحـــــــــق والمجد الأثيل

حقاً.. لله ما يلقونه في الحق والمجد الأثيل!

أما الساسة المعتقلون آنذاك بجوبا، والمذكورون آنفاً، ففي صباح يوم التشييع قال لهم الأمير عبد الله نقد الله: حدثت (كتلة) في أم درمان، وذهب منا إثنا عشر، ولا أعرف كم ضحايا الطرف الآخر؟ فتهكم السيد محمد أحمد محجوب من محن هذا (الدنقلاوي)، وذهب لقائد السجن ليمتحن كلامه، فبهت القائد لأن الخبر وصله للتو، وكان يعلم يقيناً أنه ما من أحد في جوبا –غيره– قد سمع.

القصة التي تحكى عن الأمير أنه رأى في المنام، وأحلامه أعلامه، أن الإمام عبد الرحمن واقف وأمامه إثنا عشر جنازة مكفنة والصديق متجه نحوهم بينما الإمام عبد الرحمن يؤشر له لينتظر قليلاً. توجس الأمير من أن يرحل الصديق بعد برهة من هذا العقد النضيد[1].

لقد روّعت تلك الأحداث الشعب السوداني الذي لم يعتد على مثل هذه الاعتداءات بالذخيرة الحية منذ استباحة أم درمان في كرري.

(١) الرواية مأخوذة عن ابنته الأستاذة سارة نقد الله

ومن قصص ذلك الزمان المر الذي واجه الأسى بالطرفة، أن الهادي نصر الدين الملقّب بالضلالي، وهو من أعلام ودنوباوي كان يومها في حفل بهيج بالملازمين، وكان مشهوراً بإعجابه بالملازمين باعتباره حياً جميلاً راقياً، وبينما هم في الحفل الذي كان يغني فيه محبوبه المرحوم إبراهيم عوض، سمع الناس صوت رصاص فارتعبوا وذاكرة أحداث المولد لا زالت حية، فانفض الحفل وحينما سئل الهادي عم حدث قال: أبداً دة ما صوت رصاص بل منقة طرشقت في التلاجة!

فاجعة وفاة الإمام الصديق

يروي الأستاذ عبد الرحمن مختار في كتابه (خريف الفرح) أنه زار الإمام الصديق قبل يومين من وفاته فحكا له رؤية تفيد يقينه من لقائه الوشيك بربه. وهو معنى ورد بكتاب (جهاد في سبيل الديمقراطية) الذي أشرف على إعداده السيد الصادق المهدي.

وجاء: (انكشفت حوادث المولد عن موقف فريد: قائد اجتمعت له الكلمة وشعب تحفز للتضحية وانتزاع حقوقه. كان الإمام الصديق يعلم أن سبل النصح والتفاهم قد وصلت حدودها وأن الحكام قد لعب الغرور بعقولهم فلا يسمعون إلا المنافق ولا يحفلون إلا بعبارات التأييد الزائفة. وكان يدرك أنه والأنصار وراءه متحفزون للانقضاض وسائر السودانيين وراءه علي استعداد للتضحية كان يعلم أنه وتلك الحال في مفترق طرق: إما أن يعلنها ثورة حمراء غايتها النصر وإما أن يلجم المشاعر الثائرة ويكبح جماح المعارضة إبقاءً على سلامة البلاد ويصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً) ثم روى الصادق كيف ضاق صدر الصديق بتلك الاحتمالات فأصابته ذبحة صدرية في أربعينية المجزرة (السبت ٣٠/ ٩/ ١٩٦١م) واشتدت بالإثنين ٢/ ١٠/ ١٩٦١م، فناداه عصراً وأملى عليه وصيته بين شهود من الأطباء والأهل والأصدقاء ونصها: (إننا لا نكن عداء خاصاً لأحد وليس لنا مطلب خاص وإن مطلبنا هو مطلب البلاد قاطبة في أن تحكم بالشورى والديمقراطية وأن يعطى الناس الحريات الأساسية فاحرصوا علي تحقيق هذه المطالب مهما كلفكم الحرص). وبالنسبة للكيان أوصى بمجلس خماسي يرعى (شئوننا الدينية والسياسية بكلمة موحدة حتى تنقضي الظروف الحالية في البلاد وعندما تلتفتوا لأمر اختيار الخليفة الذي يكون إماماً يكون ذلك عن طريق الشورى بقرار الأنصار). ثم حاول الأطباء منعه من الكلام فقال إنه ليس جزعا من الموت ولكن عليه مسئولية

(فالرسول قال خيركم من مات على وصية ويقول ليس منا من مات إلا ووصيته تحت وسادته)[1].

وتحدث عن أعمال الدائرة والأسرة، وكان حاضر الذهن مطمئناً. ثم طلب قارئ الراتب فجاء سيدنا عبد الله إسحق فقرأ الراتب كله، وبعدها رفع يديه بالفاتحة وقال لابنه الصادق: أحسن الله عزاءك في أبيك. الآن دعوني أرتاح. ورقد. لقد كان الحبة الثالثة عشر، من ذلك العقد الذي تألق يوم ميلاد النبي! والذين «ماتوا ليجني الشعب في أعقابهم زهر الربيع».

فسلام على الصديق في الخالدين.

حينما قلنا إنه الأب الشرعي لثورة أكتوبر المجيدة غالطنا البعض، وهم معذورون لأن تاريخ بلادنا لا يقيد وليس الصديق أول ولا آخر مظاليم هذا النهج الأعوج.

وللمغالط أن يأخذ شهادات الشهود كالسيد فاروق أبو عيسى وقد كان سكرتير الجبهة الوطنية المتحدة ومن رموز جبهة الهيئات. والأستاذ محجوب محمد صالح عضو الجبهة، أو يعود للكتب التي أرخت للمرحلة باقتدار أمثال كتاب دكتور إبراهيم الحاج موسى (تطور نظم الحكم والديمقراطية في السودان) البعيد عن حزب الأمة، وكتاب (ثورة شعب)لأحمد محمد أحمد شاموق، وخريف الفرح لعبد الرحمن مختار رحمه الله وهو يقول عن وفاته إنه ترك سفينة البلاد (وقد أصبح ربانها وسائقها). وقال د. إبراهيم الحاج موسى إن وفاة الإمام الصديق بالنسبة للمعارضة كانت (خسارة فادحة أصابتها بهزة عنيفة لازمتها حتى قيام ثورة أكتوبر الخالدة). فكل من حضر تلك الأيام يجمع على أن الصديق كان المحرك الأساسي للمعارضة الجماهيرية للدكتاتورية. أما أثره في كيان الأنصار فظاهر في كلمات الوصية.

وهل سمعنا كثيراً بقادة يوصون بالديمقراطية والشورى وهم على فراش الموت ويقولون لمن خلفهم احرصوا عليها مهما كلفكم الحرص؟ هذا وقد كلفه الحرص حياته!

وروى لنا السيد الصادق إن أحد الأطباء الأجانب الموجودين حينها، وكان بريطانياً

(١) الصادق المهدي، جهاد في سبيل الديمقراطية

واسمه مورغان، قال مندهشاً: لو كان ما يقال عن وجود جنة ونار صحيحاً، فهذا الرجل ذاهب لا شك إلى الجنة، إن الألم الذي يعانيه من هم في مثل علته لا يسمح بهذه السكينة ولا رباطة الجأش التي شهدناها!

وخاطب الشاعر أبو القاسم عثمان السيد الصادق وهو يرثي الراحل الكبير في قصيدة بعنوان «ذكرى الإمام الصديق»:

ذكرى من الصديق يسمو قدرها ... وتظل سامقة على كيوان
يا يوم غيبته أثرت مدامعاً ... وسقيت أربعنا من الأحزان
لبس السواد عليك كل مجند ... يمشي ليوم النصر في إيمان
من كل ندب لا يشق غباره ... قد قد خافقه من الصوان
والراية المثلى ترفرف مثلما ... كانت على ماض من الأزمان
لكنها قد جددت وتجددت ... بالصادق المذخور للحدثان
ما شانه سن الشباب وإنما ... زان الشباب بعفة وجنان
والعقل يزهى بالشباب وقد حوى ... حلم الشيوخ وحكمة الشبان

ورثا الإمام الصديق شاعر المؤتمر حسن طه بقوله:

أيا دوحة المهدي والموت سنة ... فروعك رغم الموت تنمو وتكبر
عزاء فرغم الدهر أنت وريفة ... قطوفك للجانين تدنو فتبطر
إذا ما ذوى فرعٌ علا منك آخرٌ ... وأصلك باقٍ غوره ليس يسبر
إلى الخلد يا صديق مثواك جنة ... أعدت لمن يرضي الإله ويذكر
برا أن تخلف صادقا ... زعيما قوي البأس هيهات يقهر
فهيا بنا يا صادق في مسيرة ... إلى المجد لا نكبو ولا نتعثرُ
لك الأمر فأمرنا لك النهي فانهنا ... فأنت لها نبديه رأي معبرُ
هنيئا لأنصار الإله زعامة ... تسلمتها والجو أكلف أغبرُ

وهـا أنـت ربـان السـفين فسـر بهـا ... إلى شاطئ الأمـن الـذي كـاد يهجـرُ
ووحـد صـفوف القـوم للغايـة التـي ... يقررهـا السـودان فـيما يقـررُ
علـى هـذه النجـوى أجـدد بيعتـي ... لـك اليـوم فالأنصـار لا تتغيـرُ

فجأة تـُرك حبيبنا في العراء، وقد كان ينعم بغطائين عظيمين هما الإمام عبد الرحمن والإمام الصديق! في سن صغيرة على تحمل مسئولية كبيرة كالتي كانت تنتظره، خاصة وقد كان المتوقع لدى كثيرين أن يبايع إماماً للأنصار، وحتى حينما تقلد عمه الإمام الهادي الإمامة برضاه ومباركته وبدون أدنى نزاع كما سوف نروي تفصيلاً، فإن الحمل على عاتقه كان كبيراً جداً، وقد حمله بمسئولية فائقة مثبتاً أنه قد ملأ المكانة، وأن (العقل يزهى بالشباب وقد حوى حلم الشيوخ وحكمة الشبان)!